

## الفصل الأول

### تأصيل علم التاريخ

obeikandi.com

## مقدمة الفصل الأول

فى هذه الدراسة التاريخية برزت الرؤية الإسلامية للعلوم الاجتماعية بوضوح شديد. إن هذه العلوم والتاريخ على رأسها، أدوات فكرية لبلوغ الحقائق. ومرد ذلك إلى أن الإسلام نفسه هو دين الحق الذى يعادى الباطل فى كل المجالات العلمية والفكرية. والله تعالى هو القائل: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١] فالإسلام هو الحق. ودعوته هى دعوة الحق، ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ [الرعد: ١٤] والقرآن نزل بالحق ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾

[الإسراء: ١٠٥]

ولهذا وجدنا المؤرخ المسلم لا ينشد سوى الحق، ولا يبتغى غير الحقيقة، ووجدناه ينفر من الباطل والمبطلين ومن الزيف والمزيفين.

وكانت هذه الرؤية الراقية لعلم التاريخ جزءاً من أصالة هذا العلم. وقد أبرزت هذا الجانب من الأصالة فى هذه الدراسة قدر طاقتى، وفى مقارنات علمية بين المؤرخين المسلمين والمؤرخين المسيحيين، أساسها شهادات مؤرخين مسلمين وغير مسلمين.

وبرزت أصالة التاريخ الإسلامى فى القرآن الكريم ذاته، حيث وجدنا التاريخ يبدأ من يوم خَلَقَ اللهُ تعالى العرش، والقلم، والسموات والأرض؛ ووجدنا قصة خلق أبينا آدم عليه السلام وزوجه، وقصص الأنبياء العظام من بعده، عليهم السلام. ولهذا بدأ المؤرخون المسلمون مؤلفاتهم من تلك اللحظة البعيدة - لحظة خَلَقَ اللهُ العرش والقلم.

وأما إسهامات المؤرخين المسلمين فقد تمثلت فى الفصول الرائعة التى كتبوها

عن العصور التي عاشوا فيها، وشهدوا أحداثها، بل شاركوا أحياناً في صنعها، إلى جانب فصول السيرة النبوية العطرة وتاريخ الراشدين رضی الله عنهم (١).

وقد عرّضتُ لهذه الإسهامات وتلك الأصالة، والرؤية الإسلامية، لدى سبعة من كبار المؤرخين المسلمين. ولم يكن من المستطاع دراسة جميع المؤلفات التاريخية لجميع المؤرخين المسلمين، لأن ذلك يحتاج إلى سفرٍ ضخم. والله تعالى أسأل أن يجعل من هذه الدراسة سبباً لغرس الثقة في تاريخنا العظيم.

\* \* \*

---

(١) مثال ذلك ابن خلدون، وصلاته بالأحداث الرهيبة التي وقعت في دمشق على أيدي التتار، واحتياله على السلطان "تمر" لكي يخرج من هناك ويعود إلى مصر (انظر كتابه: التعريف بابن خلدون؛ ص ٣٧٢ وما بعدها).

## التاريخ فى القرآن الكريم

كما أشرت فى المقدمة، يبدأ التاريخ فى القرآن الكريم من: خَلْق العرش والقلم، والسموات والأرض. ويحفل القرآن بالفصول التاريخية. فأخبار الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم تستغرق شطراً واسعاً من السور القرآنية. ويُسمى عدد من السور بأسماء الأنبياء: يونس وهود ويوسف وإبراهيم ومحمد صلى الله عليهم وسلم.

ويسجل القرآن الكريم قصة خَلْق آدم من طين، وإهباطه إلى الأرض، بعد أن عصى ربه وأكل من الشجرة التى نهاه ربه عن الأكل منها. وقصَّ القرآن الكريم قصة ابنى آدم، والقربان الذى قدماه، فتُقْبِلَ من أحدهما ولم يتقبل من الآخر.

ووصف القرآن الكريم مشهد سجود الملائكة لآدم تكريماً لا عبادة، وكيف عصى إبليس أمر الله تعالى له بالسجود.

ووردت قصة سيدنا نوح عليه السلام مع قومه الذين نفروا من دعوته وسخروا منه، وكيف صنع الفلك وركبها مع القلة المؤمنة، لينجو من الطوفان.

ويقص القرآن الكريم قصة سيدنا موسى عليه السلام منذ أن وُلِد، وكيف نجاه الله تعالى من قبضة فرعون. وإحدى السور القرآنية تسمى سورة القصص، جاءت فيها قصة موسى وأمه وأخته، ونجاته من بطش فرعون، وأسفاره العديدة، وزواجه فى "مَدْيَن"، ومكوثه هناك عشر سنوات، وتفصيل أخرى كثيرة.

وقصة سيدنا يوسف عليه السلام جاء بها التنزيل فى سورة باسم "يوسف". وهى تسجل أبناء ذلك النبى الكريم منذ طفولته مع إخوته، وكيف دبروا له مكيدة للخلاص منه، وكيف نجاه الله تعالى، ومكَّن له فى أرض مصر، وجعله موضع ثقة ملكها. وذلك تاريخ رائع، سده الصدق، ولُحِمته الروح الإيمانية.

ومن البدهى أن يتحدث القرآن الكريم عن خاتم الأنبياء سيدنا محمد ابن عبد الله ﷺ . وقد خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ [الأنفال: ٦٥]؛ وتحدثت عنه الآيات الكريمة بوصفه الرسول والنبى، كقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ [الاعراف: ١٥٧] وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ [التوبة: ١١٧] ولهذا قلَّ ورود الاسم العلم "محمد" إذا قُورن بأسماء الأنبياء الآخرين .

وفى القرآن الكريم تاريخ جهاد النبى ﷺ ، وأخبار يوم بدر، وأحد، والخندق، وفتح مكة، وحُنين . وكانت هذه المواد التاريخية الأساس الذى شيدت عليه السيرة المطهرة . بل إن بعض الأحداث التى وقعت فى بيت النبوة المحمدية سُجلت فى سورة التحريم وفى غيرها أيضاً .

وصفوة القول – إذن – إن التاريخ الإسلامى ضارب بجذوره فى أعماق الوجود؛ وصَدْرُ هذا التاريخ مُسَطَّرٌ فى آيات التنزيل . فهو تاريخ أصيل، عريق، وإن تأخر تحديد البداية الزمنية لتسجيل الأحداث والوقائع إلى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

### تأسيس التاريخ الهجرى :

فبعد إنشاء الدولة الإسلامية الأولى وتشعب معاملاتها الرسمية والشعبية كان لابد من تأسيس تاريخ إسلامى لضبطها . قال ابن كثير: "قال الواقدي: فى ربيع الأول من هذه السنة – أعنى سنة ست عشرة – كتب عمر بن الخطاب التاريخ، وهو أول من كتبه " قلت (أى ابن كثير): قد ذكرنا سببه فى سيرة عمر، وذلك أنه رُفِعَ إلى عمر صَكٌ مكتوب لرجل على آخر بدئين يحل عليه فى شعبان، فقال: أى شعبان؟ أمن هذه السنة أم التى قبلها أم التى بعدها؟ ثم جمع الناس فقال: ضَعُوا للناس شيئاً يعرفون فيه حلول ديونهم . فيقال إن بعضهم أراد أن يؤرخوا كما تؤرخ الفرس بملوكهم، كلما هلك ملك أرخوا من تاريخ ولاية الذى بعده، فكرهوا ذلك . ومنهم من قال: أرخوا بتاريخ الروم من زمان إسكندر، فكرهوا ذلك، ولطوله أيضاً . وقال قائلون: أرخوا من مولد رسول الله ﷺ . وقال آخرون من مَبْعَثِهِ عليه السلام . وأشار

على بن أبى طالب وآخرون بأن يُؤرخ من هجرته من مكة إلى المدينة، لظهوره لكل أحد، فإنه أظهر من المولد والمبعث، فاستحسن ذلك عمر والصحابة، فامر عمر أن يؤرخ من هجرة رسول الله ﷺ، وأرخوا من أول تلك السنة من مُحرمها" (١).

ونلاحظ هنا أن عمر والصحابة لم يرفضوا التاريخ الفارسى والرومى بغير سبب معقول، بل لعدم صلاحيته. ولم تظهر لدى الجميع حساسية من الاقتباس من الآخرين.

وفى بحث الموضوع التزم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والصحابة بمبدأ الشورى. وأثبتت القرون من بعدهم أنهم كانوا على صواب. ولم يحاول مسلم تغيير التاريخ الهجرى إلا شاذ، وقد فشلت تلك المحاولة وحُوصرت وعُزلت عزلاً تاماً. وبنهاية الطاغية الذى ابتدعها سوف تذهب هباءً، ليظل التاريخ الهجرى مفخرة للمسلمين، وعنصراً مهماً فى كيان هويتهم.

### تأسيس التاريخ الهجرى فى رواية الجبرتى

وقال الجبرتى رحمه الله إن أول واضع للتاريخ فى الإسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وذلك حين كتب أبو موسى الأشعري إلى عمر أنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب لا ندرى على أيها نعمل! فقد قرأنا صكاً محله شعبان، فما ندرى أى الشعبانين، أهو الماضى أم القابل؟ وقيل: رُفِعَ لعمر صك محله شعبان فقال: أى شعبان هذا؟ أهو الذى نحن فيه أو الذى هو آت؟ ثم جمع وجوه الصحابة رضى الله عنهم وقال: إن الأموال قد كثرت، وما قسمناه غير مؤقت (يعنى غير محدد وقته أو تاريخه)، فكيف التوصل إلى ما يضبط به ذلك؟ فقال له الهرمزان -وهو ملك الأهواز، وقد أسر عند فتوح فارس وحُمِلَ إلى عمر وأسلم على يديه - إن للعجم حساباً يسمونه "ماه روز"، ويسندونه إلى من غلب عليهم من الأكاسرة. فعربوا لفظه "ماه روز" (يُمَوَّرِخ) ومصدره التاريخ، واستعملوه فى وجوه التصريف. ثم شرح لهم الهرمزان كيفية استعمال ذلك. فقال لهم عمر: ضَعُوا للناس تاريخاً يتعاملون عليه،

(١) ابن كثير؛ البداية والنهاية؛ ج٧ ص ٧٠.

وتصير أوقاتهم فيما يتعاطونه من المعاملات مضبوطة. فقال له بعض من حضر من مسلمي اليهود: إن لنا حساباً مثله مسنداً إلى الإسكندر. فما ارتضاه الآخرون لما فيه من الطول. وقال قوم: نكتب على تاريخ الفرس. قيل: إن تواريخهم ليست مسندة إلى مبدأ معين، بل كلما قام منهم ملك ابتدأوا التاريخ من لدن قيامه وطرحوا ما قبله. فاتفقوا (أى الصحابة وعمر على رأسهم) على أن يجعلوا تاريخ دولة الإسلام من لدن هجرة النبي ﷺ، لأن وقت الهجرة لم يختلف فيه أحد، بخلاف وقت ولادته ووقت مبعثه ﷺ (١).

ومن الجلى في هذا الخبر أن الضرورات الحياتية فى الدولة الإسلامية الناشئة المتنامية هى التى تطلبت وضع البداية الزمنية للتاريخ لتنظيم المعاملات والمراسلات بين الناس وبين أمير المؤمنين وعماله على الأقاليم، وضبط الشؤون المالية فى الدولة، بعد أن كثرت الأموال باتساع الفتوحات وامتدادها إلى اليمن وفارس والشام ومصر. واستشار "عمر" الصحابة رضى الله عنهم، وسمع من مسلمة بنى إسرائيل ومن الهرمزان. وبعد بحث الموضوع اتفق الصحابة (مع عمر) على أن تكون بداية التاريخ الإسلامى الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، لأن وقتها ثابت معروف بلا خلاف. ولذلك سُمى تاريخ الإسلام: التاريخ الهجرى.

ومنذ ذلك الوقت حرص المسلمون على تدوين الأحداث والأخبار بدقة وموضوعية وحياد ونزاهة. وتلك هى الخصائص التى يفرضها الإسلام، وهى التى تشكل الرؤية الإسلامية لعلم التاريخ وللعلوم الاجتماعية كلها.

### منهج الإسناد:

ومن أجل توثيق الحقائق حرص المؤرخون المسلمون - كما حرص المحدثون - على التأكيد من صدق الرواة، ومن اتصال بعضهم ببعض، حتى المصدر الأعلى للخبر. وسُمى هذا المنهج "الإسناد"، كما سُمى البحث فى صدق الرواة وصدق الرواة "علم المجرى والتعديل" ولهذا تم فحص حالة كل من قال "قال رسول الله ﷺ". واتباع

(١) تاريخ الجبرتي؛ طبع دار الجيل؛ بيروت؛ ص ٦، ٧ (لا توجد بيانات أخرى).

المؤرخون المنهج نفسه بقدر طاقتهم، وكلما أمكن ذلك. فالحدث المسلم والمؤرخ المسلم، يبحثان عن الحقائق، امتثالاً لتعاليم الإسلام، دين الحق الذى لا يطبق الباطل والتزوير فى أى ناحية من نواحي الحياة.

قال عبدالله بن المبارك رضى الله عنه: "الإسناد من الدين. ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء." وطلبُ العلو فيه سنة أيضاً. ولذلك استُحبت الرحلة فيه<sup>(١)</sup>.

وقد رحل فى طلب الإسناد غير واحد من الصحابة. ويُذكر أن جابر بن عبد الله سار إلى مصر ليسأل "عقبة بن عامر" عن حديث واحد، ثم عاد إلى المدينة دون أن يصنع شيئاً سوى ذلك. وعن سعيد بن المسيب رحمه الله قال: إن كنتُ لأسافر مسيرة الأيام والليالي فى (طلب) الحديث الواحد<sup>(٢)</sup>.

فهؤلاء العلماء حرصوا على معرفة أحاديث الرسول ﷺ. كما حرصوا على تلقيها من أقرب الناس إليه من الصحابة الذين سمعوها منه، ولم ينقلها إليهم راوٍ. وهذا هو الإسناد العالى، الذى يضمن صحة الحديث. وهم فى سبيل ذلك يسافرون الأيام والليالي ويقاسون المشقة الشديدة، فى السهل والجبل، والليل والنهار والحر والبرد.

وهكذا ورث المسلمون الحرص على الحقيقة، نقيه من كل شائبة، من مصدرها الأول. فإذا اضطروا إلى نقلها عن راوٍ نزلت درجة وثاقتها على الرغم من حرصهم على التأكد من عدالة الراوى وضبطه. وقد أنشأوا علم الجرح والتعديل لمعرفة العدالة والضبط واتصال الرواة فى كل من قال "قال رسول الله ﷺ"، كما ذكرنا قبل قليل.

وشاعت هذه الروح العلمية العظيمة فى كل المجالات العلمية، ووجدنا بعض كتب التاريخ تصطنع المنهج نفسه الذى اتبعه علماء الحديث، طلباً للحقيقة التاريخية، كسيرة ابن هشام و"طبقات" ابن سعد، وتاريخ الأمم والملوك للطبرى.

وبعد تأسيس التاريخ الهجرى انطلقت الأقلام العديدة فى كتابة التاريخ المجيد لأمتنا.

(١) مقدمة ابن الصلاح؛ ص ٣٧٨، ٣٧٩.

(٢) محاسن البلقينى، على هامش مقدمة ابن الصلاح، ص ٣٧٩.

ومن أشهر المؤرخين عند العرب "أبو عبيدة" الذي نُسبَ إليه أنه كتب مائتي بحث عن القبائل وبطونها وظهور الإسلام، وفتوحات الأقاليم، وأخبار الجماعات، مثل قضاة البصرة والخوارج والموالي. ويعد "المسعودي" من أكبر مؤرخي العرب (المسلمين)، وإن لم يصلنا من كتبه الكثيرة إلا نتف. وتبرز في كتابته الرغبة في المعرفة لذاتها. وكتب محمد بن جرير الطبري "تاريخ الرسل والملوك" (١). وقصد في هذا الكتاب إلى إتمام تفسيره للقرآن... وكتب ابن عساكر "تاريخ دمشق" في مائة مجلد. والتراجم عند العرب في غاية الثراء، مثل كتاب أبي حيان التوحيدي عن الوزيرين ابن العميد الثاني والصاحب بن عباد. وهناك كتاب "الأغاني" لأبي الفرج. و"معجم البلدان" لياقوت. و"فتوح البلدان" للبلاذري. و"تاج الملة" لإبراهيم الصافي. و"الفتح القسي في الفتح القدسي" لعقاد الدين الأصبهاني، وفيه يؤرخ استرجاع صلاح الدين لبيت المقدس. وكتب ابن عبدالحكيم أقدم تاريخ لمصر الإسلامية، وهو "تاريخ مصر وفتوح المغرب". وكتب ابن مسكويه كتاب "تجارب الأمم". وألّف عز الدين بن الأثير تاريخ "الكامل" المشهور، واتسم بأسلوب رشيق، وأدخل الحوادث والروايات التي حشدها في إطار من الحوليات. وقرب الممالك في مصر عبدالرحمن بن خلدون الذي يُعد من أكبر المؤرخين في العالم. وتعد "مقدمته" وكتابه "العبر" من أروع كتب التاريخ، وقد بناها على ملاحظاته فيما يحدث من الوقائع. ويذهب إلى وجود اطراد في السلوك الإنساني شبيه باطراد الطبيعة. وتقى الدين المقرئ صاحب كتاب "الخطط" وهو من أشهر الكتب التاريخية في تاريخ مصر الإسلامية. وكتب ابن إياس تاريخاً لمصر إلى الفتح الإسلامي. وأرخ أبو المحاسن ابن تغري بردي لمصر من الفتح الإسلامي إلى العصر المملوكي.. وفي العصور الحديثة ظهر كتاب "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" لعبد الرحمن الجبرتي، ويؤرخ لمصر من أيام علي بك الكبير حتى قبيل وفاة الجبرتي نفسه (٢).

\* \* \*

(١) ويسمى تاريخ الأمم والملوك أيضاً.  
(٢) راجع: الموسوعة العربية الميسرة؛ ج ١ ص ٤٨١.

## نماذج من مؤلفات المؤرخين المسلمين

### ● الأنموذج الأول :

#### السيرة النبوية العطرة لابن هشام :

سوف أعرض فيما يلي إسهامات بعض المؤرخين المسلمين وأصالتهم، وأبين - بعون الله تعالى - التزامهم بالرؤية الإسلامية للعلوم الاجتماعية، من خلال سبعة نماذج من المؤلفات التاريخية. وسيرة ابن هشام هي الأنموذج الأول.

إن أول من كتب في السيرة النبوية العطرة هو "ابن شريفة الجرهمي" الذي استقدمه معاوية بن أبي سفيان من صنعاء ليكتب كتاباً في التاريخ فكتب له كتاب: "الملوك وأخبار الماضين". وبعده كثر المؤرخون الذين كتبوا في سيرة النبي ﷺ وأولهم عروة بن الزبير بن العوام، ثم أبان بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ هـ، ثم وهب ابن منبه المتوفى سنة ١١٠ هـ، وغيرهم<sup>(١)</sup>.

#### شيخ كتاب السيرة :

ثم جاء دور شيخ رجال السيرة محمد بن إسحاق (المتوفى سنة ١٥٢ هـ) ثم زياد البكائي المتوفى سنة ١٨٣ هـ، ثم الواقدي صاحب المغازي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ، ومحمد بن سعد صاحب "الطبقات الكبرى" المتوفى سنة ٢٣٠ هـ. ثم كتبت السيرة المطهرة عشرات المرات عبر القرون، مع اختلافات يسيرة، ملخصة وموسعة، نثراً وشعراً.

وكتب ابن إسحاق السيرة في ثلاثة أجزاء: المبتدأ، والمبعث، والمغازي. وفي هذا الجزء الثالث تناول حياة النبي في المدينة، ملتزماً منهج الإسناد والترتيب الزمني.

(١) سيرة ابن هشام؛ المقدمة للمحققين الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي؛ نشر مكتبة الحلبي؛ بمصر؛ سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م. ط ٣ ص ٥.

## ابن هشام:

وجمع ابن هشام سيرة ابن إسحاق ودونها، وحرر ما كتبه ابن إسحاق، واختصر بعضه، وتقدَّ بعضه، وأضاف روايات أخرى لم يوردها ابن إسحاق، كما أضاف تكملة لها. قال ابن هشام: "وأنا إن شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل ابن إبراهيم ومن ولد رسول الله ﷺ من ولده... وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل.. وتارك بعض ما يذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيراً له، ولا شاهداً عليه، لما ذكرت من الاختصار، وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها، وبعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته، ومستقص إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به" (١).

وهذا مسلك أخلاقي وعلمي رفيع.

ومن الجلي أنه أراد التركيز في السيرة العطرة، فترك ما لا يتصل بها. واستبعد الشعر المشكوك فيه، والمشتع به، أو الذي يسيئ إلى بعض الناس. ثم أضاف روايات أخرى، بغية التوثيق الأقوى. وهذا كله يتسق مع الرؤية الإسلامية للتاريخ كعلم ينشد الحقائق. واحتراماً لهذه الرؤية لم يدع لنفسه عملاً قام به ابن إسحاق أو غيره، فتجده يذكر القارئ دائماً بمصدر الخبر الذي نقل عنه، وابن إسحاق أكثرهم ذكراً. وبهذا الجهد استحق ابن هشام أن يقتسم المجد مع أستاذه ابن إسحاق بوصفهما صاحبي هذه السيرة العطرة، أو هذا الإسهام التاريخي الكبير والرائد.

وقد اشتهر هذا العمل التاريخي باسم "سيرة ابن هشام"؛ لكن اسم ابن إسحاق لم يُنس ولم يُغفل، بفضل تلميذه ابن هشام الذي داوم ذكره على امتداد الكتاب، بعد الاعتراف الذي سجله في بداية الكتاب (٢).

(١) سيرة ابن هشام؛ المقدمة للمحققين الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري، وعبدالحفيظ شلبي، نشر مكتبة الحلبي، بمصر، سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م ط ٣ من ص ٥ إلى ١٢.

(٢) السيرة؛ الجزء الأول؛ ص ٤.

وهذه هي الامانة العلمية التي التزمها المؤرخون المسلمون ولم ينتهكها إلا شاذ غير جدير بأخلاق العلماء .

### إسهام عظيم :

وبهذا العمل الموسوعي حفظ لنا ابن اسحاق وابن هشام صورة حية ناطقة، صادقة، لحياة نبينا ﷺ ، تلك الحياة الحافلة بجلائل الأمور، منذ لحظة ميلاده ﷺ إلى يوم أن لحق بالرفيق الأعلى محاطاً بكوكبة مضيئة من الرجال العظام، الذين أسسوا دولة، وأقاموا أمة، وبذلوا في سبيل ذلك أموالهم وأنفسهم . وقدم لنا ابن إسحاق وابن هشام كل التفاصيل الدقيقة لحياة النبي الكريم بما في ذلك عدد أولاده وزوجاته وسيوفه حتى لكان القارئ يعيش في كنفه ويشاركة طعامه وشرابه، ويمشي إلى جنبه، ويصلى وراءه، ويجاهد معه، ويسمع صهيل خيله، ويكفي معه ويفرح معه ويتعلم منه الصبر والمصابرة، والجهاد والتضحية، والزهد والورع.

فالسيرة ليست مجرد تاريخ . كلا، إنها حياة نابضة ومدرسة عامرة، يدخلها المسلم تلميذاً ويخرج منها عالماً، ويقرأها الرجل ضعيف الإيمان فيتخرج منها على يقين . ويتناولها الكافر للتسلية أو المعرفة فيخرج منها هاتفاً باسم محمد والإسلام .

لهذا أقول إن السيرة النبوية التي كتبها ابن اسحاق ومحصها ابن هشام تمثل أعظم إسهام إسلامي في مجال التاريخ، وفي مجال التربية والتعليم والدعوة أيضاً .

ولنا نحن المسلمين أن نعتز بهذا الإنجاز العظيم المبكر الذي قام به رجلا من علماء الإسلام الكبار، وعلينا أن نواصل الاستفادة منه كما استفاد سلفنا على امتداد القرون، في مناهج التعليم ووسائل الإعلام والفنون والآداب .

وبعد أن تحولت القبائل العربية من مجرد قبائل متناحرة إلى أمة متحدة، واتسعت رقعتها بفضل الفتوحات المتوالية، احتاج المسلمون إلى إنشاء الدواوين، أو الإدارات المختصة، وإلى تسجيل نظم الجيش والمالية، فأسسوا التاريخ الهجري لمواجهة احتياجات الأمة الجديدة الكبيرة، كما ذكرت منذ قليل .

\* \* \*

## ● الأتمودج الثانى :

الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد :

وهو : أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهرى . كان يكتب للواقدى ، المؤرخ الكبير صاحب المؤلفات العديدة فى السيرة النبوية وتاريخ العرب (١) .

وقد وصف الشيخ حسن مامون كتاب "طبقات ابن سعد" فقال إنه : "موسوعة تاريخية عظيمة ، ومرجع للمحدثين والإخباريين والنسّابين ، ومصدر من المصادر القديمة (القيمة) المهمة لسيرة رسول الله ﷺ ، وأحاديثه ، وأخبار الصحابة وتاريخهم ، وأحوال العرب وعاداتهم حتى عصر أبى عبد الله محمد بن سعد صاحب الطبقات الكبرى . " وكتابه : "عمل ضخّم متنوع الثقافة شمل أكثر ما كتبه الواقدى الذى قيل عنه : "محمد بن عمر الواقدى عالم دهره ."

"وقد رتب (الطبقات) بين الصحابة - رضى الله عنهم - على أساس السبق إلى الإسلام ، وحضور غزوة بدر الكبرى ... بدأ بالمهاجرين البدرين ثم بالأنصار البدرين ، ثم بمن سبق إلى الإسلام ولم يشهد بدرأ ، ولكنه هاجر إلى الحبشة أو شهد غزوة أحد ... ثم من أسلم قبل فتح مكة ."

"واعتمد عليه - أى على كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد - كثير من كُتّاب التاريخ العربى والإسلامى وكتّاب السيرة ورجال الحديث ."

"وابن سعد فى طبقاته ليس راوياً لحادثة مؤرخاً لها فحسب ، ولكنه ناقد كذلك" (٢) .

منهج ابن سعد لفرز الخبر الحقيقى من الخبر الزائف : الإسناد :

وابن سعد - مثله مثل المؤرخين والمحدثين المسلمين الرواد - يستخدم "الإسناد"

---

(١) ولد الواقدى سنة ١٣٠ هـ ؛ وتوفى سنة ٢٠٧ هـ ؛ وتوفى ابن سعد سنة ٢٣٠ هـ ، انظر : مقدمة محقق كتاب "طبقات ابن سعد" ص ٤ ، ص ٨ ، ص ١٠ .  
(٢) نفسه ؛ ص ١٣ - ١٥ .

لضمان بلوغ الحقيقة. لكنه للأسف أفسح مجالاً للرواية عن مسلمة بنى إسرائيل في مسائل تخص خلق آدم عليه السلام ووصفه، ووفاته، وهى إسرائيليات لا يمكن أن يركن إليها. والإسناد فيها لا يكفي لضمان الصحة، ولابد من التمهّص باستخدام منهج علماء الحديث فى الجرح والتعديل، والاحتكام إلى المبادئ الشرعية، والبدهيّات العقلية.

وابن سعد معذور، لأنه ألف كتابه فى بداية القرن الثالث الهجرى، ولم تكن قواعد الجرح والتعديل قد بلورت كما نجدّها لدى الإمام الغزالي ولدى الشاطبى وابن خلدون فيما بعد.

ويروى ابن سعد أخباراً عن رواة لا يمكن أن يكونوا مصدرأ لها. من ذلك مثلاً قوله: "أخبرنا قبيصة بن عقبة السّوّائى، حدثنا سفيان بن سعيد الثورى، عن أبيه عن عكرمة، قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام"<sup>(١)</sup>. فمن أين لعكرمة أن يعرف هذا الخبر؟ وفيما يتعلق بأولاد نوح ونسلهم يذكر خبراً عن سعيد ابن المسيب. ويشور السؤال نفسه: من أين لسعيد بن المسيب أن يعرف أن العرب والفرس والروم هم أولاد سام، وأن السودان والبربر والقبط أولاد حام، وأن الترك والصفالبة وياجوج وماجوج أولاد يافث؟!

الجواب دون تردد: إنه لا يمكن أن يعرف ذلك معرفة علمية يوثق بها.

### السيرة العطرة:

يعرض ابن سعد السيرة كحياة بديعة، حارة، متدفقة، مادياً وروحياً، فى أشخاص تنبض فى صدورهم القلوب، وتشع من أجسادهم حرارة الإيمان، ومن أرواحهم نور اليقين فى سبعمائة صفحة متوالية من كتابه - المطبوع - الكبير.

---

(١) الطبقات الكبرى؛ ج ١ ص ٥٦.

ويوسع ابن سعد المكان لكل صغيرة وكبيرة في سيرة المصطفى ﷺ ، ابتداء من ميلاده، ونسبه، حتى المشط الذي كان يمشط به شعره الشريف، ومكحلته، ومرآته، وقَدْحه، وسيوفه، ودرعه، وترسه، وقسيه، وخياله، وإبله، وأغنامه، وخدمه، ومواليه .  
فيضع أمامنا صورة كاملة، شاملة، لا تنقصها رتوش أو ظلال .

وينتقل من السيرة إلى طبقات البدرين، ثم المهاجرين والأنصار، والتابعين .  
وينهى كتابه بجزء عن كبيرات نساء المسلمين من المهاجرات والأنصاريات ومن رَوَيْنِ الأحاديث عن رسول الله ﷺ (١) .

وإسهام ابن سعد في مجال التاريخ كبير، فقد ترك للمسلمين والعالم سجلاً حافلاً بحياة نبي عظيم، صنع أمة، وأنشأ دولة لم تبلغ من العمر مائة عام حتى صارت أقوى دولة في العالم في عصرها .

ولم يقف ابن سعد عند حدود الغزوات والفتوحات، ولكنه صور لنا حياة النبي ﷺ من كل جوانبها الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، والخاصة .  
وكانت الحقائق التي سجلها ووثقها هي السلاح الذي نسف كل الافتراءات التي حاول الأعداء القدامى والمعاصرون إلصاقها بشخص النبي ﷺ أو بصحابته رضی الله عنهم . ولم تجد سيرة نبي من الأنبياء مثل هذه العناية الواسعة الدقيقة التي تجدها في "الطبقات الكبرى" .

أمثلة من رواياته وأخباره:

أورد ابن سعد الروايات العديدة عن نسب رسول الله ﷺ . ثم أورد رواية عن ابن عباس " أن النبي عليه السلام لم يجاوز في نسبه معد بن عدنان بن أدد، ثم كان يمسك ويقول: كذب النسأبون . قال الله عز وجل: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٨] (١) .

(١) انظر مقدمة المحقق؛ ص ١٠، ١١ .  
(٢) الطبقات الكبرى؛ ج ١ ص ٨٦ .

ثم أورد روايات أخرى من طرق أخرى، ثم قال إن: "الأمر عندنا على الانتهاء إلى معد بن عدنان، ثم الإمساك عما وراء ذلك إلى إسماعيل بن إبراهيم" (١) وهذا التحفظ وراءه الخوف من الخطأ في نسب رسول الله ﷺ، ومخالفة السنة حيث توقف الرسول نفسه عند معد بن عدنان. وكان بعض الرواة من مسلمة بنى إسرائيل قد تجاوزوا معد بن عدنان بكثير من الأسماء.

وأورد ابن سعد ١٩ رواية عن وفاة إبراهيم ابن النبي ﷺ، وكيف حزن الأب الكريم على ولده الرضيع. وليس بين تلك الروايات العديدة اختلاف سوى بعض التفاصيل التي تتسع في بعضها وتكاد تنعدم في بعضها. وأكثرها تفصيلاً تلك التي رواها عن سفيان بن عيينة. قال: "أخبرنا سفيان بن عيينة عن ابن أبي حسين عن مكحول قال: دخل رسول الله ﷺ وهو معتمد على عبد الرحمن بن عوف، وإبراهيم وجود بنفسه. فلما مات دَمَعَتْ عينا رسول الله ﷺ، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أى رسول الله! هذا الذى تنهى الناس عنه متى يَرَكُ المسلمون تَبْكِي يبكوا! قال: فلما شريت عنه عبرته قال: إنما هذا رحم، وإن من لا يرحم لا يرحم. إنما ننهى الناس عن النياحة، وأن يندب الرجل بما ليس فيه. قال: لولا أنه وعد جامع، وسبيل مأتية، وأن آخرنا لاحق بأولنا، لوجدنا عليه وجداً غير هذا. وإنما عليه لحزونون. تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب، وفضل رضاعه فى الجنة" (٢).

هذا مشهد إنسانى نبيل حزين. فالابن الحبيب يلفظ أنفاسه الأخيرة، لكى يلحق بإخوته الذين سبقوه إلى الرفيق الأعلى. والظاهر أن النبي ﷺ كان مريضاً، ولذلك استند إلى عبد الرحمن بن عوف. ويتأثر النبي الوالد بمتنظر ولده الرضيع وهو يحتضر، فتدمع عيناه. ويظن ابن عوف خطأ أن ذلك مما نهى عنه النبي، فيذكر النبي بذلك! ويعلمه النبي أنها دموع الحزن، وليست نياحة محرمة، فى عبارات حزينة، رائعة، معبرة.

فالتاريخ فى "الطبقات الكبرى" صورة شاملة لحياة النبي ﷺ بحلوها ومرها، ولحياة أصحابه فى السراء والضراء، فى تصنيف دقيق مفيد.

(٢) نفسه: ج ١ ص ١٩٤ .

(١) الطبقات الكبرى؛ ج ١ ص ٧٩ .

## ● الأتمودج الثالث:

كتاب المغازى للإمام البخارى<sup>(١)</sup>:

وقد أسهم الإمام البخارى رحمه الله فى تشييد التاريخ الإسلامى بجهد وافر، فجمع ٥٦٣ خيراً وحديثاً عن المغازى - وهى الغزوات التى قام بها رسول الله ﷺ أو جيشه. وقد بدأ هذا الكتاب الواسع بخبر نقله البخارى عن ابن إسحاق قال فيه: "أول ما غزا النبى ﷺ الأبناء، ثم بواط. ثم العُشيرة." وهذا دليل توثيقه لشيخ كتاب السيرة الشريفة: ابن إسحاق.

ويقدم الإمام البخارى للتاريخ سجلاً كاملاً شاملاً موثقاً، لذلك الجهاد العظيم فى ذلك العصر الذهبى، عصر النبوة المحمدية، الذى انتقل بالقبائل العربية من حالة التشرذم والتناحر إلى حالة الأمة الواحدة المتحدة، الناهضة، المجاهدة فى سبيل الله. وفى "كتاب المغازى" أدق التفاصيل عن سير الصدام الكبير بين المؤمنين الموحدين، وبين أعداء التوحيد.

ويضيف الإمام أحمد بن على بن حجر العسقلانى، شارح صحيح البخارى، ثروة هائلة مدهشة من المعلومات والمعارف التاريخية والعسكرية والدينية إلى "كتاب المغازى" فيحيله إلى موسوعة تاريخية وأدبية ودينية، تمتد عبر حوالى ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير<sup>(٢)</sup>.

ومن حيث الوثيقة حدث ولا حرج عن كتاب البخارى وكتاب ابن حجر. فيقول ابن حجر: "اشتمل "كتاب المغازى" من الأحاديث المرفوعة وما فى

(١) ولد محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى سنة ١٩٤هـ وتوفى سنة ٢٥٦هـ.

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى؛ المطبعة السلفية؛ ج٧ من ص ٢٧٩: ٥٢١ ج٨، من ص ١٥٤-١.

حكّمها على خمسمائة وثلاثة وستين حديثاً، المُعلّق منها ستة وسبعون حديثاً والباقي موصول" (١).

وشروط البخارى لصحة الحديث صارمة. وفى هذا يقول ابن حجر رحمه الله إن مدار الحديث الصحيح عند البخارى على: "الاتصال، وإتقان الرجال، وعدم العلل" (٢).

و"الاتصال" عند "مسلم" لا يتطلب اجتماع الشيخ والراوى بتلميذه إذا تعاصر المعنّين ومن عَنَّن عنه. لكن البخارى يشترط اجتماعهما ولو مرة واحدة.

وإتقان الرجال يتطلب شهادة العلماء؛ فإذا تكلم بعضهم فى الراوى ووصفوه بالضعف، فهو غير متقن. والعلماء يصنفون الرواة درجات، أرفعها: أمير المؤمنين فى الحديث، وأدناها الوضّاع.

وشرط البخارى أن يُخرج الحديث - المُتَّفَق على ثقة نَقَلْتَه - إلى الصحابى المشهور من غير اختلاف بين الثقات الأثبات، ويكون إسناده متصلاً غير مقطوع. وقال الحافظ أبو بكر الحازمى رحمه الله: إن شرط الصحيح أن يكون إسناده متصلاً، وأن يكون راويه مسلماً صادقاً غير مدلس ولا مختلط، متصفاً بصفات العدالة، ضابطاً، متحفظاً، سليم الذهن، قليل الوهم، سليم الاعتقاد" (٣).

مثال من صحيح البخارى:

وهذا مثال من صحيح الإمام البخارى رحمه الله.

فكم كان عدد المسلمين الذين حضروا غزوة بدر؟ يجيب على هذا الإمام البخارى رحمه الله بأربع روايات تقول إن عددهم كان: "بضعة عشر وثلاثمائة" (٤).

الأولى: عن محمود، عن وهب، عن شعبة عن أبى إسحاق عن البراء.

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى، المطبعة السلفية ج ٨ ص ١٥٤ .

(٢) هدى السارى؛ ص ١١ .

(٣) هدى السارى؛ ص ٩ .

(٤) فتح البارى ٦٤ كتاب المغازى؛ ٦ باب عدة أصحاب بدر؛ الأحاديث أرقام ٣٩٥٦، ٥٧،

٥٨، ٥٩ .

والثانية: عن عمرو بن خالد، عن زهير، عن أبي إسحاق، عن البراء، عن أصحاب محمد ﷺ .

والثالثة: عن عبدالله بن رجاء، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق عن البراء .

والرابعة: عن عبدالله بن أبي شيبة، عن يحيى، عن سفيان، عن أبي إسحاق عن البراء .

فالخير مصدره الصحابي الجليل البراء بن عازب، الذى كان شاهداً على الواقعة، وإن لم يشارك فى القتال لصغر سنه . وقد أخبر أبا إسحاق عن عدد المسلمين يومئذ؛ وأخبر أبو إسحاق: شعبة فى الرواية الأولى، وزهيراً فى الرواية الثانية، وإسرائيل فى الثالثة، وسفيان فى الرابعة. وتلقى الخبر فى الرواية الأولى عن "وهب" محمود (بن غيلان)؛ وتلقاه فى الثانية عمرو بن خالد عن زهير؛ وفى الثالثة تلقاه عبد الله بن رجاء عن إسرائيل؛ وفى الرابعة تلقاه يحيى عن سفيان، ثم تلقاه عبد الله ابن أبي شيبة عن يحيى . وتلقاه البخارى عن هؤلاء الأخيرين .

بهذا المنهج اطمان الإمام البخارى إلى أن عدد المسلمين يوم بدر بلغ "بضعة عشر وثلاثمائة" المهاجرون: "نيفاً وستين، والأنصار نيفاً وأربعين ومائتين" .

وربما يظن البعض أن المسألة لا تستدعى هذا التدقيق والتوثيق؛ لكن المؤرخ المسلم لا يفكر بهذه الطريقة التى تستهين بالحقيقة فى الأخبار غير المهمة، وماذا يحدث لو كان عدد المسلمين أكثر أو أقل من هذا العدد؟

إنه منهج علمى صارم يطبق على كل الأخبار بصرف النظر عن خطورة الخبر أو عدم خطورته . وهذا المنهج جزء من الإسلام نفسه الذى يقوم على الحقائق فى عقائده وشرائعه وتاريخه، ولا يتسامح مطلقاً مع الكذابين والمزيفين والمزورين فى أى مجال دينى أو علمى أو تاريخى . وهذه هى معالم الرؤية الإسلامية الموجهة فى كافة المجالات العلمية .

والمؤرخون المسلمون حرصوا على تطبيق منهج المحدثين قدر طاقتهم . وقد وجدنا أبواباً فى مؤلفاتهم يستحيل تطبيق منهج الإسناد والجرح والتعديل فيها، بسبب قدم الأحداث التاريخية وعدم وجود الرواة .

ولقد شملت كتب الجرح والتعديل آلاف الأسماء، لرجال ونساء ممن قالوا "قال رسول الله ﷺ"، وكل من روى خبراً عن الأحداث التي وقعت في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين. وعند "الذهبي" خضع ١١٠٥٣ اسماً للجرح والتعديل<sup>(١)</sup>.

### الحقيقة أولاً :

ولا يلتفت المؤرخ المسلم إلى ما قد يكون في الخبر من ذم أو إساءة لهذا الزعيم أو ذاك. ومن أمثلة ذلك ما حدث في أثناء بناء مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة. فيذكر ابن هشام أن علياً رضي الله عنه ارتجز أبياتاً امتدح فيها الذين أسهموا في البناء، وغمز الذين لم يسهموا فيه خشية الغبار؛ والظاهر أن عمار بن ياسر رضي الله عنه واصل الرجز. فمن ذلك الذي خشى الغبار؟ ابن إسحاق ذكر أنه عثمان بن عفان رضي الله عنه. لقد احترم الحقيقة على الرغم من أنها قد تسيئ إلى صحابي جليل وثالث الخلفاء الراشدين. وهذه هي الرؤية الإسلامية. لكن ابن هشام خالف أستاذه فأغفل الاسم احتراماً للخليفة الراشد الشهيد. وعثمان أكبر من أن ينال منه خبر كهذا، وهو القمة في التضحية بماله في سبيل الإسلام، فكان على ابن هشام أن يذكر الاسم دون حرج<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

---

(١) انظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال؛ لـ "محمد بن أحمد الذهبي"؛ دار المعرفة؛ بيروت.  
تحقيق محمد علي الجاوي. (دون تاريخ).  
(٢) راجع سيرة ابن هشام؛ ج ١ ص ٤٩٧.

## ● الأ نموذج الرابع :

### تاريخ الرسل والملوك محمد بن جرير الطبري

هو أحد كبار المؤرخين المسلمين الذين قدموا إسهامات عظيمة في مجال التاريخ. وكتابه المسمى "تاريخ الرسل والملوك" أو "تاريخ الامم والملوك" يُعد أوفى عمل تاريخي بين مصنفات العرب، أقامه على منهج مرسوم، وساقه في طريق استقرائي شامل، بلغت فيه الرواية مبلغها من الثقة والأمانة والإتقان. أكمل ما قام به المؤرخون قبله، كاليقوبى والبلاذري، والواقدي وابن سعد، ومهد السبيل لمن جاء بعده كالمسعودي وابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون<sup>(١)</sup>.

وبداية الإسهام التاريخي الحقيقي للطبري تتمثل في السيرة النبوية. وأما قبلها فيدخل في العقائد جزئياً، مثل الحديث عن خلق الله تعالى للزمان والقلم، وأحاديثه عن تاريخ الرسل الكرام عليهم السلام، معتمداً على ما جاء في القرآن الكريم من آيات، وعلى أحاديث نبوية، وعلى روايات توراتية، وعلى ما كتبه السابقون. فالنقل هو المنهج المتبع عامة.

وقد رتب التاريخ الإسلامي من العام الأول للهجرة، إلى سنة ٣٠٢ هـ<sup>(٢)</sup>.

وقد كتب "تاريخ الرسل والملوك" وهو في داره ببغداد، حيث ابتنى لنفسه داراً.. وزع فيها وقته بين: العبادة والقراءة، والإملاء والتصنيف<sup>(٣)</sup>. وفي بغداد - دار الخلافة - كان المؤرخ الكبير على اتصال بمصادر الأخبار وصانعي الأحداث. وتاريخه عن هذه الفترة هو الذي لا نكاد نجده عند سواه، بهذه الحيوية والدقة الموضوعية، وبهذه التفاصيل التي لا يستطيع أحد متابعتها إلا بجهد جهيد ومثابرة مع الإصرار والإيمان بقيمة العلم التاريخي وجدواه القصوى لأمته وللإنسانية جمعاء.

(١) من مقدمة محقق للكتاب؛ ص ٢١ (وُلد الطبري سنة ٢٢٤ - وتوفي سنة ٣١٠ هـ).

(٢) راجع ص ١٥١ من المجلد العاشر. (٣) نفسه؛ ص ١٠ من المجلد الأول.

خذ مثلاً لذلك ما أورده عن خادم نصراني شتم النبي ﷺ في أوائل سنة ٢٨٤هـ، وشهد عليه الشهود: "فحبس، ثم اجتمع من غد هذا اليوم ناس من العامة بسبب هذا الخادم، فصاحوا بالقاسم بن عبيد الله، وطالبوه بإقامة الحد عليه بسبب ما شهد عليه. فلما حلَّ عليه يوم الأحد لثلاث عشرة بقية منه (من شهر ربيع الأول) اجتمع أهل "باب الطاق" إلى قنطرة "البردان" وما يليها من الأسواق. وتَدَاعَوْا، ومضوا إلى باب السلطان، فلقيهم أبو الحسين ابن الوزير، فصاحوا به، فأعلمهم أنه أنهى خبره إلى "المتعصد" (الخليفة)، فكذبوه، وأسمعوه ما كره، ووثبوا بأعوانه ورجاله حتى هربوا منهم، ومضوا إلى دار "المتعصد" بـ "الثريا"، فدخلوا من الباب الأول والثاني، فمُنِعُوا من الدخول، فوثبوا على من منعهم، فخرج إليهم من سالمهم عن خبرهم، فأخبروه. فكتب به إلى "المتعصد" (١).

تفاصيل واسعة تعطى صورة دقيقة حية للزمان والمكان والناس، تجعلنا نعيش مع أهل "باب الطاق" ونشعر بحماسهم وغيرتهم على نبيهم ﷺ، ونلمس التراخي في موقف السلطات، وكيف انتهى إلى الصدام.

والطبري مؤرخ أمين، يصطنع منهج الإسناد كالمحدثين، ويورد الخبر من طرق عديدة، الأمر الذي قد يربك القارئ الحديث غير المتخصص (٢).

وتوثيق الخبر وبلوغ الحقيقة الموضوعية هما الغاية المرجوة. لكنه لم يكن يستطيع الإسناد دائماً. من ذلك مثلاً في تاريخ الرسل عليهم السلام، وكذلك تاريخ فارس. وأما فترة حياته في بغداد فكان يقول: "ورد الخبر مدينة السلام" (٣) "ولثلاث عشرة بقية من شهر رمضان (سنة ٢٩٥ هـ) دخل بغداد رسول أبي مضر زيادة الله ابن الأغلب... (٤) فيحدد مصدر الخبر بدقة وأمانة.

ولقد استند محمد بن جرير الطبري المؤرخ المسلم الكبير إلى القرآن الكريم

(١) تاريخ الرسل والملوك؛ ج ١٠ ص ١٢٩، ١٣٠.

(٢) د. سالم خميس؛ الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ؛ ص ٣٣.

(٣) نفسه؛ ج ١٠ ص ١٢٩، ١٣٠.

(٤) نفسه؛ ج ١٠ ص ١٣٨.

والحديث الشريف فيما كتبه عن "الزمان" و"كم قدر جميع الزمان" و"دلالة حدوث الأوقات والأزمان والليل والنهار، وهل خلق الله تعالى شيئاً قبل خلق الزمان والليل والنهار، وعن "فناء الزمان والليل والنهار"، وعن "ابتداء الخلق" وعن "الذي ثنى خلق القلم" وعن "ما خلق الله في كل يوم من الأيام الستة" وعن الليل والنهار أيهما خلق قبل صاحبه" وعن: "الأخبار الواردة بأن إبليس كان له ملك السماء الدنيا والأرض وما بين ذلك" و"ذكر الخبر عن غمط عدو الله نعمة ربه واستكباره عليه وادعاء الربوبية" و"ذكر السبب الذي به هلك عدو الله".

وهو يورد الأخبار مسندة، وبطرق عديدة، ويستفيد من آيات القرآن الكريم التي يمكن بشيء من التأويل أن تؤيد ما ذهب إليه .

والباحث الحديث يتوقف طويلاً أمام هذه المحاولات . وبعض ما وصل إليه الطبري مقبول بحكم الآيات القرآنية التي استند إليها، لكن كثيراً مما وصل إليه يصعب قبوله، لأن أساسه إسرائيلية، أو أخباراً مُرسلة عن بعض الصحابة الذين يستحيل أن يكونوا قد رأوا ما يُنقل عنهم أو سمعوه من النبي ﷺ .

مثال ذلك قول الطبري: "حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن ليث بن أبي سليم، عن طاوس اليماني، عن ابن عباس قال: إن عدو الله إبليس عرض نفسه على دواب الأرض: أيها يحمله حتى تدخل به الجنة حتى يكلم آدم وزوجه، فكل الدواب أبى ذلك عليه، حتى كلم الحية، فقال لها: أمنعك من بنى آدم، فأنت في ذمتي إن أنت أدخلتني الجنة، فجعلته بين نابيين من أنيابها ثم دخلت به، فكلمهما من فمها، وكانت كاسية تمشى على أربع قوائم، فأعراها الله تعالى وجعلها تمشى على بطنها، قال: يقول ابن عباس: اقتلوا حيث وجدتموها، وأخفروا ذمة عدو الله فيها" (١).

ونحن نعلم أن إبليس خلق من نار، فكيف تستطيع الحية أن تضعه بين نابيها؟ وكيف تكلم مع الدواب؟ وبأى لغة؟ وهل كان إبليس عاجزاً عن الدخول بمفرده؟ وما مصدر ابن عباس الذي روى الخبر؟

(١) تاريخ الرسل والملوك؛ ج ١ ص ١٠٧ .

فالقصة توراتية معروفة. وقد نشرها مسلمة بنى إسرائيل بين المسلمين، مع كثير غيرها، ونسبت لابن عباس زوراً، لأن ابن عباس الصحابي الجليل والعالم الفذ، لا يمكن أن يروى مثل هذه الاخبار.

ولو أن الطبري أضاف إلى "الإسناد" قليلاً من النقد، لما سطر هذا الكلام في تاريخه. لكنه للأسف لم يفعل.

إن إسهامات الطبري عظيمة جداً. فالطبري رحمه الله ألف أوفى عمل تاريخي بين مصنفات العرب... أكمل ما قام به المؤرخون قبله كاليعقوبي والبلاذري والواقدي وابن سعد، ومهد السبيل لمن جاء بعده كالمسعودي وابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون<sup>(١)</sup>.

"وترجع قيمة هذا الكتاب إلى أنه قد استطاع أن يجمع بين دفتيه جميع المواد المودعة في كتب الحديث والتفسير واللغة والأدب والسير والمغازي وتاريخ الأحداث والرجال، ونصوص الشعر والخطب والعهود، ونسق بينها تنسيقاً مناسباً، وعرضها عرضاً رائعاً، ناسباً كل رواية إلى صاحبها، وكل رأى إلى قائله؛ كما أنه أودع هذا الكتاب فصلاً صالحاً ونتاجاً متنوعاً من متون الكتب التي أتت عليها عوادى الأيام، وأورد من أقوال العلماء ما لا نجد إلا في هذا الكتاب"<sup>(٢)</sup>.

وقد ظل يكتب فيه حتى سنة ٣٠٣ هـ. أي إلى ما قبل وفاته بأربع سنوات، وبذلك شمل السيرة النبوية وعهد الراشدين، والعهد الأموي كله، والعصر العباسي حتى سنة ٣٠٣ هـ. وبذلك حفظ للأمة المسلمة تاريخها على امتداد ثلاثة قرون، بالإضافة إلى الفصول العديدة التي صدر بها كتابه عن عصور ما قبل الإسلام.

والحق أنه يمكن اعتبار الطبري رائداً بل مؤسساً، له في باب التاريخ ما للشافعي من فضل في باب أصول الفقه<sup>(٣)</sup>.

(١) مقدمة المحقق؛ ص ٢١ .

(٢) نفسه؛ ص ٢٤ .

(٣) د. سالم خميس؛ الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ؛ ص ٣٣ .

## تعقيب نقدي للمنهج عند الطبرى:

وبوسعنا أن نتبين القفزة الكبيرة التي حققها ابن خلدون في مجال علم التاريخ إذا نحن درسنا أمثلة من الأخبار التي أوردها الإمام الطبرى المؤرخ والمفسر الكبير، والمنهج النقلى البحث الذى التزم به .

فلا ريب أن الإمام أباً جعفر محمد بن جرير الطبرى مفسر كبير قبل أن يكون مؤرخاً . ولهذا كان عالماً بالقرآن الكريم ملتصقاً به، معاشاً له عيشاً حميماً . وبذلك كان جديراً باكتشاف المنهج النقدي الذى يقوم على السُّنن الإلهية أو القوانين الثابتة التى تحكم الظواهر الطبيعية والاجتماعية . لكنه ترك هذه المهمة الكبرى لابن خلدون، فى نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الهجرى . وتسبب ذلك فى تسرب خرافات عديدة إلى كتاب التاريخ .

ولم يتبع الطبرى منهج المحدثين فى الجرح والتعديل على الرغم من أنه كان محدثاً أيضاً، واكتفى بمنهج الإسناد . " وقد كان اعتماده هذا المنهج مثاراً للنقد عند بعض الباحثين . قالوا: إن سياقة الأخبار دون تمحيصها أمر لا يليق بالمؤرخ الناقد البصير . وإذا كانت طريقة رواية الخبر بذكر السند - ورجاله معروفون عند علماء الجرح والتعديل - تضمن صحة الأخبار وتمحيصها فى الأخبار التى وقعت فى الإسلام، فإن هذه الطريق تقصر عن ضمان صحة ذلك فيما قبل الإسلام، وخاصة أنه قد وقع فى هذا التاريخ كثير من الأخبار الواهية، والقصص الزائفة، كالإسرائيليات، وبعض أخبار الفرس؛ كما أورد أيضاً كثيراً من الأحاديث الموضوعية، كالأحاديث الواردة فى بدء الخلق وسير الأنبياء، مما لا يرتضيه المحدثون" (١) . ولا تقبله بدهيات العقول!

ويصف الطبرى منهجه فى التاريخ فيقول: " وليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن اعتمادى فى كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أنى راسمه فيه، إنما هو على ما رويت من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه، والآثار التى أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك

---

(١) من مقدمة كتاب الطبرى: "تاريخ الأمم والملوك" للمحقق الاستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم؛ ص ٢٥ .

بحجج العقول، واستنبط بفكر النفوس، إلا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادئين، غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم، إلا بأخبار المخبرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس. فما يكن في كتابي هذا من خَبَرٍ ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشعنه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فلْيَعْلَم أنه لم يؤتَ في ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبَل بعض ناقلية إلينا. وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أديَ إلينا" (١).

ويشعر الطبري بوضوح بأن كتابه يتضمن أخباراً منكراً. وهو يحمل مسؤولية ذلك على من نقله إليه! غير أن المسؤولية تقع على عاتقه هو، وهي مسؤولية هائلة، لأن كتابه الكبير اتخذ مصدراً لثقافة الأمة المسلمة، ومن خلاله ذاعت خرافات وإسرائيليات كثيرة، كانت سبباً في تضليل الكثيرين من الخطباء والقراء والباحثين، ولا تزال.

وأنا لا أطلب الطبري بأن يبلور قواعد فحص الأخبار، كما فعل الغزالي، الذي جاء بعده بحوالي مائتي سنة، أو كما فعل ابن خلدون الذي جاء بعده بحوالي خمسمائة سنة، ولكنني أرى أن أبسط ما كان يجب عليه أن يرفض الأخبار التي تتعارض مع بدهيات العقل أو مع مبادئ القرآن الكريم.

خذ مثلاً ما رواه عن "فتى موسى". قال الطبري: "حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثني محمد بن إسحاق عن الحسن بن عُمارة، عن أبيه، عن عن عكرمة، قال: قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى بذكر من حديث وقد كان معه! فقال ابن عباس فيما يذكر من حديث الفتى، قال: شرب الفتى من ماء الخُلْد فخلد، فأخذه العالم (أى الخضر عليه السلام)، فطابق به سفينة، ثم أرسله في البحر، فإنها لتموج به إلى يوم القيامة، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه، فشرِب" (٢).

(١) تاريخ الامم والملوك؛ ص ٧، ٨.

(٢) تاريخ الامم والملوك؛ ص ٣٧٣.

فابن عباس رضى الله عنه هو مصدر هذه القصة . فهل يمكن لصحابي، جليل،  
وعالم كبير، يعرف مبادئ الإسلام، أن يتورط فى مثل هذه القصة الخرافية ؟  
إن القرآن الكريم يقول ﴿ كَلُّ مِنْ عَلَيْهَا فَأَنْ ﴾ [الرحمن : ٢٦] .

ويقول أيضاً للنبي ﷺ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مَتَّ فَهُمْ  
الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٤] .

فكيف يسجل الطبرى هذا الخبر دون أن يعلق عليه بما يظهر كذبه للقارئ ؟  
وإننى لا أطلب المؤرخين بإغفال الأخبار الكاذبة، ولكنى أطلبهم ببيان كذبها، بعد  
تسجيلها، لكيلا تضلل الأمة، وتفترى على الصحابة الأجلاء . ولن نسال : أين ماء  
الخلد المزعوم؟ فى أى بحر أو نهر؟ وأين ذلك الفتى الخرافى عبر الزمان؟ لم لم يصادفه  
بحار أو يراه مكتشف؟! فلا حاجة بنا إلى ذلك .

إن منهج الطبرى النقلى البحث منهج قاصر . ولا ريب أن أخبار الماضين لا سبيل  
إلى معرفتها إلا عن طريق المخبرين، لكن التمحيص واجب، وتركه يخسف قيمة الخبر،  
ويورط الكاتب فى شناعات كثيرة .

لقد ترك الطبرى منهج المحدثين فى الجرح والتعديل، وقرر تعطيل حجج العقل،  
واستنباط الفكر، كما يقول، فكان ما كان من المناقص والعيوب فى كتابه الكبير .

### ثروة هائلة :

ولكن هذا لا يعنى نفى القيمة العلمية الكبيرة لكتاب الطبرى . إنه ثروة هائلة  
من الأخبار، لكنها تحتاج إلى التمحيص، بتطبيق مناهج المحدثين فى الجرح والتعديل  
مع المنهج النقدى . وعندئذ سيتم فرز الحقائق من الأكاذيب، وسيجد القارئ طريقاً  
مأموناً فى تحصيل التاريخ الإسلامى، وستوضع نهايات للإسرائيليات والخزعبلات  
الموجودة فى كتابه .

نعم، يجب إعادة نشر "تاريخ الام والملوك" بعد تطبيق هذه المناهج العلمية  
الإسلامية . وذلك عمل صعب، يحتاج إلى خبراء كبار، وإلى صبر ومثابرة، كما يحتاج

إلى أموال عظيمة، لأن الحجم الحالي سوف يتضاعف. ولهذا أجد أن دور النشر الصغيرة التي نشرته، وأجد المحققين الذين تركوا النقد معذورين. لكن أغنياء المسلمين كثيرون، والأموال وفيرة، والإنفاق على هذا العمل واجب ديني وعلمي وثقافي مهم.

### قَدْرُ جَمِيعِ الزَّمَانِ :

وها هنا مثال للإسرائيليات التي عكرت بعض صفحات "تاريخ الرسل والملوك" وأقصد بذلك مسألة: قدر جميع الزمان.

أوسع الطبرى لهذه القضية مساحة كبيرة في كتابه "تاريخ الأمم والملوك" (١). وأورد حوالي ثلاثين خبراً، كلها تتحدث عن عمر الدنيا، أو يوم القيامة، أو قَدْرُ جميع الزمان.

من ذلك قوله: "حدثنا ابن حُميد، قال: حدثنا يحيى بن واضح، قال: حدثنا يحيى بن يعقوب، عن حماد، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس، قال: الدنيا جمعة من جمع الآخرة، سبعة آلاف سنة، فقد مضى ستة آلاف سنة ومائتا سنة، وليأتين عليها مئتان من سنين، ليس عليها موحد" (٢).

فهذا قول صحابي، وليس قول النبي ﷺ. ومن البدهي أن ابن عباس لا يملك وسيلة لمعرفة مثل هذه الحقيقة إلا إن كان تلقاها عن النبي ﷺ. والخبر لا يقول إنه تلقاها عن النبي. ولا أحسب أن الصحابي الجليل عبدالله بن عباس يمكن أن يفتي في أمر كهذا، وبخاصة إذا تذكرنا أن الله تعالى قد قال لنبيه ﷺ: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣] ويقول جلَّ شأنه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧].

(١) المجلد الأول؛ ص ١٠-١٩.

(٢) نفسه؛ ج ١ ص ١٠.

وسال جبريلُ عليه السلام رسولَ الله ﷺ عنها فقال: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل" (١).

لا أدري كيف أن الإمام، المفسر الكبير، لم يقف عند هاتين الآيتين، ومضى فى طريقه يسجل الاخبار العديدة الأخرى التى ذكرت عُمر الدنيا.

قال: "حدثنا أبو هشام، قال: حدثنا معاوية بن هشام، عن سفيان، عن الأعمش، عن أبي صالح، قال: قال كعب: الدنيا ستة آلاف سنة" (٢).

وقال: "حدثنا محمد بن سهل بن عسكر، قال: حدثنا إسماعيل ابن عبدالكريم، قال: حدثنى عبدالصمد بن معقل، أنه سمع وهباً يقول: قد خلا من الدنيا خمسة آلاف سنة وستمائة سنة، وإنى لأعرف كل زمان منها، ما كان فيه من الملوك والأنبياء. قلت لوهب: كم الدنيا؟ قال: ستة آلاف سنة" (٣).

ومعلوم أن "وهباً" من مسلمة بنى إسرائيل، وأن أخباره غالباً توراتية. فالتوراة أوردت أرقاماً محددة عن عُمر الدنيا أو عن يوم الساعة، وتواريخ هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض، وعصر إبراهيم عليه السلام. وقد أثبت العلم الحديث أن تلك الأرقام والتواريخ خطأ. وفى هذا يقول موريس بوكاى: إن خلق العالم بحسب التقدير العبرى يحدد تقريباً بسبعة وثلاثين قرناً قبل الميلاد. فعمر العالم إذن ( ٣٧٠٠ ) سنة قبل الميلاد، يضاف إليها ١٩٩١ ( حين كتب كتابه ) بعده، فيصبح ٥٦٩١ سنة. وهذه الأرقام بعيدة عن الحقائق العلمية" (٤). ولم يذكر القرآن الكريم أرقاماً بالمرّة، فكان ذلك دحضاً للفرية الاستشراقية بأن النبى ﷺ اقتبس القرآن من التوراة.

ويمضى المؤرخ الكبير فى إيراد الأخبار حول هذه المسألة، ثم ينتهى إلى تأييد قول ابن عباس: "إن الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة" (٥).

(١) صحيح البخارى؛ فتح البارى؛ كتاب الإيمان ج ١ ص ١١٤ - حديث رقم ٣٧.

(٢) تاريخ الامم والملوك؛ ص ١٠. (٣) الموضع نفسه.

(٤) راجع كتابه: التوراة والإنجيل والقرآن، والعلم؛ ص ٤٧ من الترجمة العربية.

(٥) تاريخ الامم والملوك؛ ص ١٦.

لقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول ﴿ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الاحزاب: ٦٣] كلما سئل عن الساعة. ويستحيل أن يجيب أحداً بغير هذا الجواب. وعليه لا نستطيع قبول أى خبر يزعم أنه قد خالف أمر ربه وأجاب بغير الجواب الذى أمره به. والمشير للعجب أن يقبل المفسر العملاق تلك الاخبار ولا يذكر آيات القرآن الكريم التى تكذبها.

### كيف نفسر ذلك الموقف؟

فى اعتقادى أن الروايات والأخبار العديدة التى نسبت للنبي ﷺ، والتى كان مصدرها بعض أكابر الصحابة، مثل ابن عباس وعبدالله بن عمر - رضى الله عنهم - شكلت صعوبة كبيرة أمام الطبرى، فاستعظم أن يخالفها والله تعالى أعلم. رحم الله الطبرى رحمة واسعة وجزاه خير الجزاء لما أسداه لأمته وللإنسانية من علم وثقافة.

\* \* \*

## ● الأتمودج الخامس :

البداية والنهاية لابن كثير :

والأتمودج الخامس هو كتاب "البداية والنهاية" للمؤرخ الكبير والمفسر القدير  
أبى الفداء الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير رحمه الله<sup>(١)</sup>.

نشأ ابن كثير فى بيت علم ودين . وفى مدينة دمشق تلقى تعليمه على أيدى  
شيوخها الكبار . وبعد أن نضج مارس التدريس والفتوى والتأليف ، وترك لنا ثروة غالية  
من المؤلفات ، أهمها كتابه : "البداية والنهاية" فى التاريخ<sup>(٢)</sup> وكتابه "تفسير القرآن  
العظيم"<sup>(٣)</sup>.

وقد بدأ ابن كثير كتابه "البداية والنهاية" بقصص الانبياء وأخبار الأمم الماضية ،  
ثم أخبار العرب فى الجاهلية . وسجل مؤرخنا الكبير سيرة رسول الله ﷺ ، وأحداث  
عهد الراشدين رضى الله عنهم ، ثم العصر الأموى ، ثم العصر العباسى .

ومن البدهى أن ابن كثير كان ينقل الأخبار عن المؤرخين والمحدثين السابقين  
على تلك العصور . لكنه سجل أخبار عصره حتى تاريخ الانتهاء من الكتاب ، قبل  
وفاته بقليل ، بعد أن فقد بصره<sup>(٤)</sup> . وهذا هو الإسهام المرموق الذى أهده ابن كثير إلى  
أمتة المسلمة ، وهو العمل الذى يمثل أصالته ، والذى يزود من جاء بعده بالحقائق عن  
تلك الفترة المضطربة من تاريخ أمتنا المسلمة حين واجهت غزوات المغول فى القرن  
الثامن الهجرى .

(١) ولد سنة ٧٠١ هـ وتوفى سنة ٧٧٤ هـ .

(٢) طبعته دار الحديث بالقاهرة؛ بتحقيق الأستاذ أحمد عبدالوهاب فتوح سنة ١٤١٤ هـ -  
١٩٩٣م فى سبعة مجلدات زاد عدد صفحاته على (٥٠٠٠) خمسة آلاف ، غير مجلد خاص  
للفهارس فى سبعمائة صفحة .

(٣) نشرته الدار المصرية اللبنانية؛ سنة ١٤١١ هـ - ١٩٩١م فى أربعة مجلدات ، حوالى ٢٤٠٠  
صفحة .

(٤) راجع مقدمة المحقق الأستاذ أحمد عبدالوهاب فتوح .

## أحداث هائلة ومنهج دقيق:

شهد ابن كثير أحداثاً هائلة على امتداد أكثر من نصف قرن، وسجلها بموضوعية ودقة وأمانة، حتى سنة ٧٦٧ هـ.

وهو يحدد يوم وقوع الحدث، والشهر، والسنة. ففي سنة ٦٩٩ هـ، انهزم المسلمون أمام التتر هزيمة منكرة، يوم الأربعاء، السابع والعشرين من ربيع الأول، فالتقوا معهم، فكسروا المسلمين، وولى السلطان هارياً، فإننا لله وإنا إليه راجعون<sup>(١)</sup>.

"وفي ليلة الأحد ثانی ربيع الأول، كسر المحبوسون "بحبس باب الصغير" الحبس، وخرجوا منه على حمية، وتفرقوا في البلد، وكانوا قريباً من مائتي رجل، فنهبوا ما قدروا عليه..."<sup>(٢)</sup>.

ومن الجلي أن مؤرخنا الكبير كان قريباً من الأحداث، ولولا ذلك لما استطاع أن يسجل وقت الحدث، ونتيجته، وأعداد الذين شاركوا فيه.

وإذا ورد الخبر من مصدر ما، ذكّره. من ذلك قوله: "في العشر الأوسط من شهر رجب الفرد، وردت البريدية من الديار المصرية بعزل السلطان الملك الناصر حسن ابن الناصر بن قلاوون، لاختلاف الأمراء عليه، واجتماعهم على أخيه الملك الصالح"<sup>(٣)</sup>.

وفي عام ٧٥٢ هـ، في أثناء العشر الأخير من رجب، يومى السبت والأحد، نودى في دمشق عن النائب - نائب السلطان: "من وجدَ جندياً سكراناً فليزله عن فرسه، وليأخذ ثيابه، ومن أحضره من الجند إلى دار السعادة فله خُبْزُه، وفرح الناس بذلك، واحتجز على الخمارين والعصارين، ورخصت الأعتاب، وجادت الأخباز واللحم، بعد أن كان بلغ كل رطل أربعة ونصفاً، فصار بدرهمين ونصف، وأقل"<sup>(٤)</sup>.

هذا الوصف الدقيق المحدد لا يقوله إلا مشاهد، مشارك للناس في السراء

(١) المجلد ١٤ - أخبار سنة ٦٩٩ هـ - ص ٨.

(٢) نفسه؛ ص ٨.

(٣، ٤) نفسه؛ ص ٢٥٨.

والضراء. وهو وصف محايد، موضوعي، يشهد لمن أحسن بالحسنى ويشهد على من أساء بالسيئة.

### ابن كثير العالم الشجاع:

وفي سنة ٧٦٧هـ، في شهر صفر، استولى الفرنج على الإسكندرية، فأصدر السلطان مرسوماً بحبس النصارى في دمشق، وأخذ ربع أموالهم لعمارة ما خُرب في الإسكندرية بأيدي الفرنج من أهل ملتهم. ورفض ابن كثير هذا المرسوم، وتحدث بذلك مع نائب السلطان بدمشق وقال: "هذا مما لا يسوغ شرعاً، ولا يجوز لأحد أن يفتى بهذا، ومتى كانوا باقين على الذمة، يؤدون إلينا الجزية، ملتزمين بالذلة والصغار، وأحكام الملة قائمة، لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد - الفرد - فوق ما يبذلونه من الجزية"<sup>(١)</sup>.

هنا اتخذ ابن كثير موقف العالم الذي يعرف الشريعة، ولا يستطيع أن يسكت على الظلم، ثم سجل الحدث في كتاب التاريخ، دون أن يعطى اهتماماً بما لذلك من آثار سيئة على سمعة الحكم السلطاني، أو عليه هو نفسه. فكما قلتُ غير مرة إن الرؤية الإسلامية المعتبرة في مجال التاريخ تحتفل بالحقائق بصرف النظر عن كل شيء آخر. وهذا مثال تطبيقي لذلك.

وبدأ ابن كثير كتابه عن "صفة خَلَقَ العرش والكرسى" و"اللوح المحفوظ" وخلق السماوات والأرض وما فيهن من الآيات، وخلق الجنان، وقصة الشيطان، وخلق آدم عليه السلام، وقصة قابيل وهابيل.. إلخ. وكان في ذلك متبعاً لأسلافه من المؤرخين المسلمين. واستند في كتابة هذه الفصول على آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن ذلك، وعلى أحاديث نبوية عديدة أضافت معلومات وشروحاً إلى ما ورد في القرآن الكريم.

(١) المجلد ١٤ - أخبار سنة ٦٩٩هـ؛ ص ٣٣٦، ٣٣٧.

## الإسرائيليات :

لكن ابن كثير لم يكتف بالقرآن والسنة، وأخذ كثيراً من الإسرائيليات؛ ولأنه اتبع منهج النقل دون فحص أو نقد للأخبار، تسربت بعض الأخطاء إلى عمله الكبير. من ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن هرقل كتب إلى معاوية وقال: إن كان بقى فيهم شيء من النبوة فسيخبرنى عما أسألهم عنه. قال: فكتب إليه يسأله عن الحجر، وعن القوس، وعن بقعة لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة. قال: فلما أتى معاوية الكتاب والرسول قال: إن هذا الشيء ما كنت أبه له أن أسأل عنه إلى يومى هذا، من لهذا؟ قيل: ابن عباس. فطوى معاوية كتاب هرقل، فبعث به إلى ابن عباس، فكتب إليه: أن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق، والحجر باب السماء الذى تنشق منه الأرض. وأما البقعة التى لم تصبها الشمس إلا ساعة من نهار: فالبحر الذى أفرج عن بنى إسرائيل.

وقال ابن كثير: إن الإسناد صحيح إلى ابن عباس (١).

ونحن لو سلمنا بصحة الإسناد، فإن السؤال الذى سيفرض نفسه هو: من أين لابن عباس أن يعرف تلك المعلومات؟ ثم إن الأجوبة ليست صحيحة علمياً. والأجوبة الصحيحة لم تكن متاحة لأحد فى ذلك الزمان. ولا يمكن أن نصدق أن ابن عباس - ذلك الصحابى الجليل - يسمح لنفسه بالحديث فى أمور كونية لا يعرف عنها شيئاً. ومن الأخطاء التى تسربت إلى "البداية والنهاية" قصة رواها ابن كثير عن خبر أسطورى حمله إلى دمشق "رسول ملك التتار" يقول: "إن فى البلاد المتاخمة للسد أناساً أعينهم فى مناكبهم، وأفواههم فى صدورهم، يأكلون السمك. وإذا رأوا أحداً من الناس هربوا! وذكر أن عندهم بذراً ينبت الغنم، يعيش الحروف منها شهرين وثلاثة، ولا يتناسل" (٢).

(١) البداية والنهاية؛ ج ١ ص ٣٨.

(٢) البداية والنهاية؛ ج ١٣ ص ١٧٨، ١٧٩ - أخبار سنة ٦٣٨ هـ.

وعلماء الحديث يرفضون مثل هذا الخبر، لأنه يتعارض مع سنن الله في خلقه ومع المبادئ العامة المعروفة عن الحياة البشرية والحيوانية. وابن كثير عالم كبير يعرف ذلك تمام المعرفة. فكان من البدهى أن يرفض ذلك، أو يسجله ويفنده.

وكانت هذه الاخبار المضادة لسنن الله في خلقه عند المؤرخين هي التي أثارت غضب ابن خلدون، فأخذ ينقدها في ضوء قوانين العمران، وهي نفسها المبادئ الحاكمة للحياة البشرية والاجتماعية.

### إسهامات ابن كثير:

لكن هذه الشوائب لا يجوز أن تنسينا إسهامات ابن كثير في مجال التاريخ. ونحن ندين له بمعرفة القرن الثامن الهجري، وما جرى فيه في مصر والشام خاصة، وفي العالم الإسلامي عامة. ونحن نفخر بهذا المؤرخ المسلم الدقيق، الموضوعي، الذي وضع أمام أنظارنا صورة حية، نابضة، لعصر مضطرب من تاريخ أمتنا. وقد كافأته الأمة باحتفائها بكتابه، بل بكتبه كلها، فوضعها المسلمون الموضع اللائق بها، وطبعوها، ونشروها عشرات المرات، على الرغم من اتساعها الباذخ.

\* \* \*

## ● الأتمودج السادس :

كتاب "العبر" لابن خلدون :

وإسهامات ابن خلدون عديدة، فى مجالى علم الاجتماع وعلم التاريخ . وكتابه المسمى "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر" موسوعة تاريخية حافلة، صور فيها عصره صورة مدهشة فى دقتها وشمولها، فضلاً عن التاريخ الإسلامى بعصوره المختلفة السابقة على عصر ابن خلدون، مستخدماً أسفاره العديدة من المغرب إلى المشرق وإلى الأندلس<sup>(١)</sup> .

### أصالة ابن خلدون :

وأصالة ابن خلدون تتجلى فيما كتبه عن العصور الإسلامية السابقة على عصره، وفيما كتبه عن عصره . ذلك أنه لم يتبع منهج النقل البحت، وإنما فحص الأخبار فى ضوء قوانين العمران، ثم استبعد الأخبار التى ثبت زيفها، وكتب التاريخ المصنّى، النقى من شوائب المبالغات والخرافات . وهذا إبداع أصيل له .

وأما تاريخ عصره فقد عرضه فى أدق وأكمل صورة ممكنة، فتحدث عن العرب المتعربة فى المغرب، وعن تاريخ البربر وقبائلهم الشهيرة، وكتب عن تاريخ الدول التى قامت فى بلاد المغرب، وأرخ للمرابطين والموحدين، وتوسع فى تاريخ دولة بنى حفص التى عاصرها، ومارس بعض وظائفها . وبهذا حفظ للأمة المسلمة قطعة غالية من تاريخها .

### التاريخ معمل :

ومن هذا التاريخ الطويل العريض الثرى استخلص ابن خلدون المبادئ الحاكمة للظواهر الاجتماعية، فكان التاريخ عنده هو المعمل الذى فيه تجرى التجارب

---

(١) راجع كتابه: التعريف بابن خلدون؛ ص ٨٠، ٢١٦، ٢٤٦، ٣٥١ .

وتستخلص النتائج. وقد امتدت قوانين العمران عنده لتشمل: قيام الدول، وتطورها، وانهارها؛ والحياة الاقتصادية والتجارية، ومصادر الكسب والعيش، والصنائع والمهن، والعلوم والفنون التي عُرفت في عصره، في لوحات مشرقة تخطف الأبصار.

ولأن ابن خلدون أقام بمصر فترة طويلة، فقد حظى تاريخ تلك الفترة باهتمام المؤرخ الكبير، ووصل في ذلك إلى أخبار الدولة المصرية والتركية إلى سنة ٧٩٧هـ. وفي هذا كله بدت أصوله الباهرة، وتمثلت إسهاماته العلمية والتاريخية الكبيرة.

### تاريخ البربر:

وما كتبه ابن خلدون عن تاريخ البربر هو أقوى ما كتب أصالةً وتجديداً وطرافة: "وذلك أن معظم ما جاء في هذا الكتاب لم ينقل من مراجع مدونة وإنما سجله ابن خلدون نفسه لأول مرة من مشاهداته في أثناء اتصاله بمختلف قبائل البربر وتنقله بين دول المغرب" (١).

### شهادة دوزي:

وكتب ابن خلدون -استناداً إلى مشاهداته وقراءاته عن دول الإسلام في صقلية، وعن تاريخ الطوائف بالاندلس، والممالك النصرانية في إسبانيا، وتاريخ دولة بنى الأحمر في غرناطة. وقد نوّه بقيمة هذه البحوث وأشاد بفضلها على علم التاريخ كثير من علماء الغرب في العصر الحديث، ومن هؤلاء العلامة دوزي « Dozy » الذي يصف رواية ابن خلدون عن تاريخ النصارى في إسبانيا بأنها: "منقطة النظر، ولا يوجد في بحوث علماء الغرب المسيحيين في العصور الوسطى ما يستحق أن يقارن بها" (٢).

### المنهج النقدي:

ويقول ابن خلدون: "إن فحول المؤرخين في الإسلام قد أستوعبوا أخبار الأيام

(١) د. علي عبدالواحد وافى؛ عبدالرحمن بن خلدون؛ ص ٢٣٥.

(٢) نفسه؛ ص ٢٣٤.

وجمعوها، . . . وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهَمُوا فيها أو ابتدعوها . . . ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا تُرْهَات الأحاديث ولا دفعوها. فالتحقيق قليل. وطَرَفُ التنقيح في الغالب قليل. والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل".

وقد تمثل إسهامه العظيم في تلافى هذه المناقص الخطيرة<sup>(١)</sup>.

ثم ذكر المؤرخين المسلمين المتميزين: ابن إسحاق والطبري وابن الكلبي، والواقدي، وسيف بن عمر الأسدي.

ثم ذكر مؤرخي الاقطار الذين اكتفوا بالتاريخ كل لبلده أو قطره وعصره. "ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد وبليد الطبع والعقل أو متبلد، ينسج على ذلك المنوال، ويحتذى منه بالمثال"<sup>(٢)</sup>.

### التمحيص:

فما الجديد الذي يريد ابن خلدون إضافته إلى فن التاريخ؟

إنه يريد التحقيق والتمحيص للأخبار بعرضها على القوانين والسنن الحاكمة للمجتمع البشري: "فللعمران طبائع في أحواله، تُرجع إليها الأخبار، وتحمل عليها الروايات".

فهذا هو الإسهام العظيم لابن خلدون في علم التاريخ: إنه منهج نقدي، علمي، قادر على تمييز الصادق من الكاذب من الأخبار. وأساس هذا المنهج وجود سنن أو قوانين حاكمة لظواهر "العمران" أو الحياة البشرية.

أما دراساته التاريخية الواسعة فكانت المجالات التي طبق فيها منهجه النقدي. وقد شمل كتابه في التاريخ: العمران، وأخبار العرب، وأخبار العجم، والبربر، ولذلك سماه: "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر"<sup>(٣)</sup>.

(١) د. سالم خميس؛ الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ؛ ص ٤١ .

(٢) المقدمة؛ ص ٧، ٨ .

(٣) نفسه.

ويقول ابن خلدون: "فلا تشقنَّ بما يُلقى إليك من ذلك، وتأمل الأخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه" (١).

ويقول ابن خلدون إن: "الأخبار، إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكَّم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران، والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق. وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غشاً أو سميئاً، ولم يعرضوها على أصولها.. ولا سَبَرها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات" (٢).

ومن الجلى هنا أن المنهج النقدي لابن خلدون صالح للتطبيق في مجالات التفسير، والحديث، فضلاً عن التاريخ. فالمفسرون يعتمدون على كثير من الأخبار والأحاديث النبوية (تفسير القرآن الكريم بالسنة المطهرة). ويقع لهم في النقل ما يقع للمؤرخ، ومن ثم يلزمهم ويفيدهم المنهج النقدي كما يفيد المؤرخ.

ابن خلدون تعلم من القرآن والحديث :

والحق أن تمحيص الأخبار والأحاديث النبوية شكَّل علماً عظيماً في الشقافة الإسلامية، هو "علم الحديث"؛ وأنا أعتقد أن ابن خلدون اقتبس منهجه النقدي من ذلك العلم. وابن خلدون أستاذ في علوم الحديث، وقد درَّسها وعرضها في "المقدمة" في إيجاز مدهش. فهو يعرف منهج الإسناد ويعرف "الجرح والتعديل"، وهما المنهجان المناسبان لغريبة الأخبار وفرز الرواة؛ ولذلك يصعب القول إنه لم يتعلم منهما شيئاً، وهو الذي تلقى العلوم الإسلامية من أكابر العلماء في عصره (٣).

وأحسب أنني أول من كشف النقاب عن هذه الحقيقة التي غابت طويلاً عن

(١) المقدمة؛ ص ١٥ .

(٢) نفسه؛ ص ١٢ .

(٣) ابن خلدون؛ التعريف بابن خلدون؛ ص ٣٠٥-٣١١ .

دارسى ابن خلدون . والحقيقة أن ما صنعته ليس كشفاً عن سرٍّ مستور، وإنما هو تقرير لحقيقة ظاهرة، بارزة، فى سطور "المقدمة"، صرف الله تعالى عنها الدارسين، ولفت نظرى إليها، لتفسير العبقريّة الخلدونية بردها إلى أصولها الإسلامية .

ويطبق ابن خلدون منهجه النقدي على عدد من الأخبار . من ذلك ما كتبه "المسعودى" عن الإسكندر لما صدّته دواب البحر عن بناء الإسكندرية، وكيف اتخذ صندوق الزجاج وغاص فيه إلى قاع البحر حتى صور تلك الدواب الشيطانية التى رآها وعمل تماثيلها من أجساد معدنية، ونصبها حذاء البنيان، ففرت تلك الدواب حين خرجت وعابنتها، وتم بناؤها، فى حكاية طويلة من أحاديث خرافية مستحيلة، من قبيل اتخاذه التابوت الزجاجى ومصادمة البحر وأمواجه بجرمه، ومن قبيل أن الملوك لا تحمل أنفسهم على مثل هذا الغرور، ومن اعتمده منهم فقد عرّض نفسه للهلكة وانتقاض العقدة واجتماع الناس إلى غيره، وفى ذلك إتلافه ولا ينتظرون رجوعه من غروره ذلك طرفة عين، ومن قبيل أن الجن لا يُعرف لها صور ولا تماثيل تختص بها... " وهذه كلها قادحة فى تلك الحكاية . ثم يضيف ابن خلدون حقيقة الحاجة إلى التنفس . ونفاد الهواء فى الصندوق، مما يؤدى إلى الهلاك<sup>(١)</sup> .

والحقيقة الأولى، أو القانون الأول، هو أن الملوك لا يمكن أن تقوم بمثل هذه المغامرة المهلكة . والحقيقة الثانية أن الجن لا يعرف لها صور حتى يصنع لها تماثيل . والحقيقة الثالثة استحالة التنفس .

ويطبق منهجه على "البكرى" : "فى بناء المدينة المسماة "ذات الابواب"، تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة، وتشتمل على عشرة آلاف باب . والمدن إنما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتى . وهذه خرجت عن أن يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا مُعتصم !! وهكذا بضربة واحدة ينسف ابن خلدون تلك الخرافة !

ومن الأمثلة التطبيقية ما ذكره "المسعودى" عن مدينة النحاس، "وأنها مدينة

(١) المقدمة؛ الكتاب الأول؛ ص ٣٣، ٣٤ .

كل بنائها نحاس .. وأنها مغلقة الأبواب، وأن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف على الحائط، صَفَّقَ ورَمَى بنفسه، فلا يرجع آخر الدهر!" .

ويعلق ابن خلدون على هذه الحكاية بقوله إنها حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص . ولم يقف الأدلاء على خبر لتلك المدينة: " ثم إن هذه الاحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل عادة، مناف للامور الطبيعية فى بناء المدن واختطاطها، وأن المعادن غاية الوجود منها أن يصرف فى الآنية والحرفى (= أثاث البيت) . وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد" .

وتمحيص هذه الأخبار: "إنما هو بمعرفة طبائع العمران . وهو أحسن الوجوه وأوثقها فى تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها . وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة . ولا يُرجع إلى تعديل الرواة حتى يُعلم -أولاً- أن ذلك الخبر فى نفسه ممكن أو ممتنع . وأما إذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر فى التعديل والتجريح" (١) .

وفى هذا المثال نرى معرفة ابن خلدون بوضوح ويقين للجرح والتعديل الذى يمارس فى تمحيص الأخبار عن رسول الله ﷺ . ففى أول خطوة يُطبَّق المنهج النقدى . فإذا ظهر أن الخبر ممكن فى نفسه، جاء دور التعديل والتجريح للرواة . وهذا هو ما يتبعه علماء الحديث . فإذا كان الخبر مستحيلاً فى ذاته رفضوه . وأما إذا كان ممكناً فإنهم يبحثون فى عدالة الرواة وضبطهم، وغير ذلك من شروط قبول الحديث . وهنا يظهر تأثير علوم الحديث فى المنهج النقدى عند ابن خلدون .

ونلاحظ أن الجرح والتعديل ليس قاصراً على أخبار الرسول ﷺ وحدها . وقد طبقه "الطبرى" فى "تاريخ الأمم والملوك"؛ وإن كان قد خُدع فى بعض الرواة . ونلاحظ أن المنهج النقدى عند ابن خلدون ليس قاصراً على التاريخ أو "العمران"، بل يطبق أيضاً على أخبار الرسول، وعلى أى خبر .

فالتاريخ أخبار، يرويها رواة، عن قادة وملوك وأمراء، كما أن التاريخ ينطوى على وقائع . والرواة فيهم الصادق وفيهم المتعصب الكاذب . وهذا ما يعانى به عصرنا اليوم

(١) المقدمة؛ الكتاب الأول؛ ص ٣٤، ٣٥ .

حيث يكتب التاريخ أناس لا يهتمهم إلا مرضاة السلطة؛ فنحن بحاجة إلى الجرح والتعديل لإنقاذ الحقائق.

والسنة النبوية تعرضت لاكاذيب الوضعيين، فكان الجرح والتعديل هو المنهج الذي كشف ضلالاتهم. وفي السنة أخبار عن وقائع؛ وهذه الوقائع قد تصادم قوانين الوجود ومبادئه، وقد تصادم القرآن والسنة النبوية، فيحتاج المحدث إلى المنهج النقدي الذي اتبعه ابن خلدون؛ وهذا هو ما حدث مبكراً اعتباراً من القرن الثالث للهجرة.

### الأخبار التي يجب تكذيبها:

وهناك أخبار يجب رفضها. وقد حدد الإمام الغزالي أنواعها الأربعة:

يقول الإمام الغزالي رحمه الله: إن من الأخبار ما يُعلم كذبه، وهي أربعة:

#### الأول:

"ما يُعلم خلافه بضرورة العقل، أو نظره، أو الحس والمشاهدة، أو أخبار التواتر. وبالجملة: ما خالف المعلوم بالمدارك الستة المذكورة، كمن أخبر عن الجمع بين الضدين، وإحياء الموتى في الحال".

#### الثاني:

ما يخالف النص القاطع من الكتاب والسنة المتواترة وإجماع الأمة."

#### الثالث:

"ما صرح بتكذيبه جمع كثير يستحيل في العادة تواطؤهم على الكذب، إذا قالوا: حضرنا معه في ذلك الوقت فلم نجد ما حكاه من الواقعة أصلاً".

#### الرابع:

"ما سكت الجمع الكثير عن نقله والتحدث به مع جريان الواقعة بمشهد منهم ومع إحالة العادة السكوت عن ذكره لتوفر الدواعي على نقله، كما لو أخبر مخبر بأن أمير البلدة قتل في السوق على ملاء من الناس، ولم يتحدث أهل السوق به، فيقطع

بكذبه، إذ لو صدق لتوفرت الدواعى على نقله، ولا حالت العادة اختصاصه بحكايته" (١).

وإذا كان المنهج النقدي قد طُبِق على عدد من المؤرخين، فإن التعديل والتجريح طبق على آلاف الرواة. والإمام الذهبي وحده فى كتابه: "ميزان الاعتدال" عدل وجرح ١١٠٥٣ من الرواة (٢).

وقد تكون الاخبار التى يرويها رواة السنة عن وقائع، فيجب عندئذ أن تخضع للمنهج النقدي. مثال ذلك ما رواه نجيح - أبو معشر السُّنْدِي الهاشمي عن سيدنا موسى - عليه السلام - : أنه مكث أربعين يوماً بعد أن كلمه الله لا يراه أحد إلا مات (٣). فهذا الخبر ينتمى إلى النوع الرابع مما يُعلم كذبه، بحسب تصنيف الإمام الغزالي الذى أوردناه سلفاً.

ومثال آخر هو حديث يعلَى بن إبراهيم الغزالي الذى يزعم أن رسول الله ﷺ مرَّ بخباء فإذا بظبية مشدودة فقالت: يا رسول الله! إن هذا الأعرابي صادني، ولى خشفان، وتعقد اللبى فى أخلافي، فلا هو يدعنى فاستريح، ولا يذبحنى. فقال لها رسول الله ﷺ: إن تركتك ترجعين؟ قالت: نعم، وإلا عذبنى الله عذاب العشار. فأطلقها، فلم تلبث أن جاءت تلمظ، فشدها رسول الله ﷺ إلى الخباء. وجاء الأعرابي فقال: أتبيعها؟ فقال: هي لك يا رسول الله. قال زيد (بن أرقم الذى أسند الحديث إليه): أما والله لقد رأيتها تسبح فى البرية تقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

قال الذهبي عن يعلى بن إبراهيم الغزالي: لا أعرفه. له خبر باطل عن شيخ واه" (٤).

والخبر لو صح لكان معجزة لرسول الله ﷺ، ولكان قد نُقل عن رواة عديدين.

---

(١) الإمام أبو حامد الغزالي؛ المستقصى من علم الأصول؛ مكتبة الجندی؛ دون تاريخ؛ تحقيق محمد مصطفى أبو العلا؛ ص ١٦٦، ١٦٧.  
(٢) ميزان الاعتدال؛ للذهبي؛ نشر دار المعرفة؛ بيروت؛ دون تاريخ.  
(٣) ميزان الاعتدال؛ المجلد الرابع؛ رقم ٩٠١٧ ص ٢٤٦.  
(٤) ميزان الاعتدال للذهبي؛ رقم ٩٨٣٣ - المجلد الرابع؛ ص ٤٥٦.

لكن "يَعْلَى" تفرد به . فكان من الصنف الرابع الذى وصفه الإمام الغزالي . وطالما أنه لم يُعرف كمعجزة، فهو جدير بأن يفحص بمعايير النقد المبنية على سُنن الله فى خلقه أو قوانين "العمران" عند ابن خلدون . وعندئذ سيثبت زيفه، لأن كلام الطبسية مستحيل وسلوكها كله سلوك بشرى، وقد حدثت الرسول ﷺ حديثاً بليغاً مؤثراً، ثم برت بوعدها وعادت إلى الخباء بعد إطلاقها .. إلخ . وهذا كله ضد قوانين الحياة الحيوانية المعروفة والراسخة . فقبل أن يرفض الخبر بتجريح الراوى، يجب أن يرفض بحسب أصول المنهج النقدي .

ومثله حديث أبى غليظ بن أمية أن رسول الله ﷺ رآه وهو على يده صُرد فقال: هذا أول طير صام عاشوراء<sup>(١)</sup> . قال فيه الذهبي: هذا حديث منكر . وتطبيق المنهج النقدي، يستحيل أن يصوم الصرد، ومن ثم يستحيل أن يكون النبي ﷺ قد قال ذلك .

صفوة القول إن المنهجين يعملان فى مجال الحديث كما يعملان فى مجال التاريخ . وكل علم يستخدم أخباراً يجب أن يستفيد من المنهجين فى فحصها وتمييز الصادق من الكاذب فيها . وتفسير القرآن الكريم أهم تلك العلوم .

وقد اتضح لنا أن المنهجين قد استخدموا فى مجال الحديث النبوى قبل "مقدمة ابن خلدون بحوالى أربعة قرون . ومن المؤكد أن ابن خلدون قد استفاد من علماء الحديث مباشرة، كما استفاد فكرة السنن من القرآن الكريم . وإسهام ابن خلدون العظيم لم يأت من العدم، لأن ذلك مستحيل، كما يقول "سارتون" مؤرخ العلوم الشهير . ولا ينتقص من قيمة ابن خلدون كونه ابن الثقافة الإسلامية؛ فإنه استوعب علوم الحديث، وبلور فكرة خضوع الظواهر الاجتماعية لقوانين العمران، وبذلك كتب تاريخاً صافياً من الخرافات، مع استثناءات . قليلة فرضها المناخ الثقافى العام . وإسهام ابن خلدون ممزوج بإسهامات العلماء المسلمين فى علوم الجرح والتعديل .

(١) ميزان الاعتدال للذهبي؛ رقم ٨٦٣٣ - المجلد الرابع؛ ص ١٣٧ .

## مدة بقاء الدنيا :

وتحدث ابن خلدون في "مقدمته" عن "مدة بقاء الدنيا". وقال إنه يصدق ما جاء عنها على لسان آل البيت، مثل جعفر الصادق، لأن: "مستندهم فيه - والله أعلم- الكشف بما كانوا عليه من الولاية. وإذا كان مثله لا يُنكر من غيرهم من الأولياء من ذويهم وأعقابهم، وقد قال ﷺ: "إن فيكم محدّثين"، فهم أولى الناس بهذه الرتب الشريفة والكرامات الموهوبة" (١).

ولن أناقش هنا مسألة "الكشف" الذي يُنسب إلى الأولياء، فتلك قضية أخرى. ولن أعرض لفحص الاخبار التي نُسبت إلى آل البيت في مسألة "الساعة"، ولكني أواجه كل ذلك بحقيقة إسلامية يقينية تقول إن علم الساعة هو مما استأثر الله به، والقرآن الكريم يقول: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣] ويقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقد سأل الناس رسول الله وأعادوا السؤال عن الساعة، ومتى هي، وسأله جبريل - عليه السلام - عنها فقال: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل" (٢).

ومن المثير للعجب ألا يستشهد ابن خلدون في حديثه عن الساعة أو مدة بقاء الدنيا، بآيات القرآن الكريم التي يحفظها عن ظهر قلب؛ وبدلاً من ذلك يعتمد على بعض الإسرائيليات التي أدخلها بعض مسلمة بنى إسرائيل في تراثنا الإسلامي، ثم يستنتج أن ما مضى من عمر الدنيا قبل مبعث النبي بلغ (٥٠٠٠) خمسة آلاف سنة، وأن عمر الدنيا كله (٦٠٠٠) ستة آلاف سنة. وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن ما جاء في التوراة عن عمر الدنيا غير صحيح (٣).

(١) المقدمة؛ الباب الثالث؛ الفصل رقم ٥٠ - ص ٢٩٨ .

(٢) صحيح البخاري؛ فتح الباري؛ كتاب الإيمان ج ١ ص ١١٤ - حديث رقم ٣٧ .

(٣) انظر موريس بوكاي؛ القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم؛ الترجمة العربية؛ نشر

دار المعارف؛ ص ٥٩ .

إننى أقدر عظمة الإنجاز العلمى لابن خلدون، المؤرخ ومؤسس فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع الحديث، واعتزبه كمسلم، وأكره أن يشغب عليه أحد. لكن حين أجد عنده شيئاً يخالف القرآن الكريم، فإننى لا أستطيع أن أصمت. ونحن المسلمين نأخذ من كلام كل قائل وندع، إلا المعصوم عليه السلام. وتوضيح إبداع ابن خلدون يفرض بيان إسهاماته، كما يفرض بيان إخفاقاته.

ومعلوم أن القارئ يحجب ثقته فى الكاتب إذا شعر بأنه متحيز، يبرز المزايا ويخفى العيوب والمناقص، ويمنح ثقته للنقد العلمى الذى لا يعرف التحيز أو التحيف.

وتكفى شهادة المؤرخ البريطانى الكبير توينى لإنجازات ابن خلدون وإسهاماته، وقد قال عن فلسفة التاريخ الخلدونية: "

'a philosophy of history which is undoubtedly the greatest work of its kind that has ever yet been created by any mind in any time or place'<sup>(١)</sup>

"إنها دون ريب أعظم فلسفة تاريخ من نوعها أبدعها عقل بشرى فى أى زمان أو مكان."

شهادة روبرت فلينت:

ولقد نقل ساطع الحصرى عن "روبرت فلينت" تقديره العظيم لابن خلدون (على الرغم من أنه كان رجل دين ذا نزعة دينية شديدة). قال فلينت: "من وجهة علم التاريخ أو فلسفة التاريخ، يتحلى الأدب العربى باسم من ألمع الأسماء. فلا العالم الكلاسيكى فى القرون القديمة، ولا العالم المسيحى فى القرون الوسطى، يستطيع أن يقدم اسماً يضاهى فى لمعانه ذلك الاسم. إذا نظرنا إلى ابن خلدون كمؤرخ فقط، وجدنا من يتفوق عليه حتى بين كتاب العرب أنفسهم. وأما كواضع نظريات فى

(1) Encyclopedia Britannica; vol 6. p. 147 Ibn Kaldun.

التاريخ، فإنه منقطع النظير في كل زمان ومكان، حتى ظهور "فيكو" بعده بأكثر من ثلاثمائة عام. ليس أفلاطون ولا أرسطو ولا القديس أوغسطين بأنداد له، وأما البقية فلا يستحقون حتى الذكر بجانبه".

"كان - ابن خلدون - رجلاً منقطع النظير بين أهل دينه ومعاصريه في موضوع الفلسفة التاريخية"؛ "وكل من يقرأ مقدمته بإخلاص ونزاهة لا يستطيع إلا أن يعترف بأن حق ابن خلدون في ادعاء الشرف - شرف التسمية باسم مؤسس علم التاريخ وفلسفة التاريخ - أقوى وأثبت من حق كل كاتب آخر، سبق فيكو"<sup>(١)</sup>.

ويعلق ساطع الحصري على تقدير "فلينت" فيقول: "يظهر من الفقرات التي نقلناها آنفاً أن روبرت فلينت يعتبر ابن خلدون متفوقاً تفوقاً أكيداً على جميع من كتب في فلسفة التاريخ، ليس قبله فحسب، بل خلال القرون الثلاثة التي تلت وفاته أيضاً"<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

---

(١) ساطع الحصري؛ دراسات عن مقدمة ابن خلدون؛ ص ١٧٦ .  
(٢) الموضع نفسه.

## ● الأنموذج السابع :

تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للشيخ عبدالرحمن الجبرتى

الجبرتى ومنهجه العلمى :

وها هو المؤرخ المصرى عبدالرحمن الجبرتى الذى أرخ لفترة عصيبة من تاريخ مصر، حيث غزاها المستعمرون الفرنسيون بقيادة بوناپرت، وعاثوا فيها فساداً، والجبرتى عاش تلك الفترة السوداء وكان قريباً من الأحداث الدامية والمظالم المؤلمة، وعلى الرغم من ذلك، احتفظ للكلمة بقدسيته، فلم يجرفه كره المستعمر إلى الحيف على الحقيقة فى أشد المواقف عسراً، بل كان ناقداً لكثير من التصرفات التى تحرك الحفائظ وتوغر الصدور<sup>(١)</sup>.

وانتقد الجبرتى الاعتداءات التى وقعت على الأبرياء فى خضم الفوضى التى اجتاحت القاهرة فى أواخر شوال سنة ١٢١٤ هـ حين شرع الفرنسيون فى الرحيل، وأقبل المماليك والعثمانيون عائدين إلى البلاد<sup>(٢)</sup>.

ويصور مظالم العثمانيين والمماليك كما صور مظالم الفرنسيين<sup>(٣)</sup>.

وهو الذى اتخذ شعار: الملك يبقى على الكفر والعدل، ولا يبقى على الجور والإيمان<sup>(٤)</sup>.

وقد وصف الجبرتى كتابه فقال: " ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير، أو طاعة وزير أو أمير. ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مبين للأخلاق، لميل نفسانى أو غرض جسمانى. وأنا أستغفر الله من وصفى طريقاً لم أسلكه، وتجارى برأس مال لم أملكه."

(١) الجبرتى؛ تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار؛ دار الجيل؛ بيروت؛ ج ٢ ص ٣١٩ .

(٢) نفسه؛ ج ٢ ص ٣٢٤، ٣٢٥ .

(٣) نفسه؛ ص ٥١٠-٥١٣ .

(٤) ج ١ ص ٢١ .

وهذا هو المؤرخ المسلم حقاً. إنه يسجل الحقائق دون نظر إلى مرضاة أحد غير الله تعالى. وهو لا يعرف النفاق، ولا يتاجر بعلمه، ولا يتقول على أحد، ولا يتحدث في أمر لا يعرفه<sup>(١)</sup>.

### إسهام الجبرتي:

وكان إسهام الجبرتي الكبير هو ذلك السجل الرائع لتاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي لها في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضی الله عنه - سنة ٢٠هـ إلى سنة ١٢٣٦هـ.

وصور لنا الجبرتي الحياة السياسية والقوى المتحركة في السلطة والثروة من الباشوات الأتراك والبكوات الماليك، وأثبت في سجله مشاحناتهم وخصوماتهم وتطاحنهم واقتتالهم، والفوضى العارمة المتصلة التي سادت البلاد بسبب ثورات العساكر بعضهم ضد بعض أو ضد البكوات. وكان الشعب المصري هو الضحية حيث كان يعمل في الفلاحة ولا يحصل من الثمار إلا على أقل القليل.

وصور الجبرتي العادات والتقاليد التي كانت متبعة في ذلك الوقت - وأواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر الهجري - من ذلك مثلاً تقاليد الأعياد. قال الجبرتي:

"وفي ثاني شهر شوال من السنة (١١٨٠هـ) ركب الأمراء إلى "قراמידان" ليهنئوا الباشا بالعيد. وكان معتاد الرسوم القديمة أن كبار الأمراء يركبون بعد الفجر من يوم العيد، وكذلك أرباب العكاكيز، فيطلعون إلى القلعة، ويمشون أمام الباشا من السراية إلى جامع الناصر بن قلاوون، فيصلون صلاة العيد، ويرجعون كذلك، ويقبلون "اتكه" ويهنئونه، وينزلون إلى بيوتهم، فيهنئ بعضهم بعضاً.."<sup>(٢)</sup>.

ولا يغفل الجبرتي عن الحياة العملية والمعيشية اليومية. فيذكر مثلاً أنه في ١٠/١٠/١٢٠٣هـ: "وصل ططرى (من التتار) وعلى يده أوامر، منها: حُسن عيار

(١) ج ١ ص ١٢.

(٢) تاريخ الجبرتي؛ ج ١ ص ٣١٦.

المعاملة من الذهب والفضة، وأن يكون عيار الذهب المصرى تسعة عشر قيراطاً،  
ويصرف بمائة وعشرين نصفاً، بنقص أربعة أنصاف عن الواقع فى الصرف بين الناس ..  
فخسر الناس حصة من أموالهم" (١).

### المؤرخ الناقد:

وصور الجبرتى البذخ الشنيع والإسراف المريع فى تصرف الباشوات الأتراك . من  
ذلك ما أرسله إسماعيل بك من الهدايا والتحف إلى الدولة (العثمانية)، فقد "أحضر  
السروجية، والصواغ، والعقادين، فصنعوا ستة سروج للسلطان وأولاده، وذلك قبل  
موت السلطان عبدالحميد، على طريقة وضع سروج المصريين بعبايات مزركشة، وهى  
مع السرج والقصعة والقربوص، مرصعة بالجواهر والبروق والذهب . والركابات  
واللجومات والبلامات والشماريخ والسلاسل كلها من الذهب البندقى الكسر . والرأس  
والرشمات كلها من الحرير المصنوع بالخيث وسلوك الذهب وشماريخ المرجان والزمرد .  
وجميع الشراريب من القصب الخيث، وبها تعاليق المرجان والمعادن، صناعة بديعة،  
وكلفة ثمينة .." (٢).

### عصر الشرور والخن:

ويقدم الجبرتى لوصف تاريخ الغزو الفرنسى لمصر سنة ١٢١٣ هـ فيقول: "وهى  
أول سنى الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة،  
وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالى الخن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع،  
وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول  
التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا  
مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧] (٣).

وواظب الجبرتى على تقصى الأخبار والحقائق حتى آخر يوم من أيام الاحتلال

(١) تاريخ الجبرتى ج٢ ص ٨١ .

(٢) نفسه؛ ج٢ ص ٨٣ .

(٣) نفسه؛ ص ١٧٩ .

السوداء الدامية. وهو أصدق مؤرخ عاصر تلك الفترة الحالكة السواد من تاريخ مصر الحديث. ونحن المصريين مدينون له بالحفاظ على حقائق تلك الفترة العصبية من تاريخ بلادنا. وما صنعه الجبرتي إسهام عظيم وأصيل بكل ما فى الكلمة من المعانى. ونحن المصريين نفخر بذلك المؤرخ العظيم وبعمله العلمى الدقيق، الذى احترم فيه الرؤية الإسلامية، فكانت الحقائق دائماً بُغيتة، وقد بذل كل جهد ممكن لبلوغها، فى مثابرة تشير الإعجاب.

رحم الله الشيخ عبدالرحمن الجبرتي وجزاه عن أمته خير الجزاء.

\* \* \*

## موضوعية المؤرخين المسلمين وتحيز المؤرخين النصارى

الاعتراف بفضائل المشركين :

إن المؤرخ المسلم يسجل كل ما يعرفه دون تحيز أو تزوير بغية تزيين صورة المسلمين . كلا، إنه يبحث عن الحقيقة، ويسجلها، دون نظر للمستفيد منها . وهذه هي الرؤية الإسلامية للعلم والمعرفة؛ وهي رؤية متحضرة راقية . وتبعاً لهذا يمكننا أن نشق في المؤرخين المسلمين، إلا فيما خدعوا فيه نقلاً عن مصادر تورانية أو إسرائيلية .

والدهش في موقف المؤرخين المسلمين أنهم لم يكونوا يخشون أن يكذبهم الطرف الجاهلي المعادى للإسلام أو يعارضهم بروايات مغايرة . وهذا ما افتقدناه بعد صدر الإسلام حين افرقت الأمة إلى شيعة وسنة ومعتزلة وخوارج ومرجئة، وظهر أثر ذلك في مؤرخي تلك الحقبة . أما في عصرنا الحديث فقد صار التاريخ مجرد دعاية .

الاعتراف بهزائم المسلمين :

والقرآن الكريم هو المثل الأعلى للمؤرخ المسلم . يقول الحق تبارك وتعالى في يوم "حُنَيْن" ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ \* ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦] .

ففي هذه الآية الكريمة صورة دقيقة لما حدث . فقد اغتر المسلمون بكثرة عددهم الذي بلغ ( ١٢٠٠٠ ) اثني عشر ألفاً من المجاهدين . ولم تكن قبيلة هوازن لتصمد أمامهم . لكن المسلمين فوجئوا بكمين نصبت له هوازن فانهزموا مُدْبِرِينَ ، باستثناء النبي ﷺ وبعض الصحابة البواسل .

قال ابن سعد: "حدثنا ابن حُميد، قال: حدثنا سَلَمَة، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبدالرحمن بن جابر، عن أبيه، قال: لما استقبلنا وادي حُنَيْنٍ، انحدرنا في وادٍ من أودية تهامة أجوف (= متسع) حَطُوط، إنما نَنحدر فيه انحداراً - قال: وفي عَمَاية الصبح، وكان القوم قد سبقوا إلى الوادي. فكَمَنوا لنا في شعابه وأحشائه ومضايقه، قد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا. فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شَدَّت علينا شَدَّةَ رجلٍ واحد. وانهزم الناس (=المسلمون) أجمعون، فانشمروا (= انفصلوا) لا يَلُوى أحدٌ على أحد. وانحاز رسول الله ( ذات اليمين، ثم قال: أين أيها الناس! هَلُمَّ إِلَيَّ! أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله!.. إلا أنه بقى مع رسول الله نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته" (١). وعاد الهاربون، وقتلوا معهم، وانتصروا نصراً مبيناً.

وانهزمت حُنَيْنٌ. وكانت أعجوبة. ولا تفسير لها إلا ما جاء في آية سورة التوبة  
 عن إنزال الملائكة جنوداً لم يرها أحد ﴿ وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾  
 [التوبة: ٢٦]

فلم يحاول المؤرخ المسلم أن يخفف الصورة المحزنة للمسلمين الهاربين، وكيف أن الواحد منهم ما كان يستطيع أن يثنى بغيره عن الهرب، مما اضطرب بعضهم إلى إصابة جمالهم في الأعناق لتتوقف عن الفرار، وتمكين الرجل من العودة إلى القتال (٢).

### صورة رائعة لرجل مشرك

وقد عاد رسول الله ﷺ من الطائف حزيناً متعباً لرفضهم قبول الإسلام: "فقال له زيد بن حارثة: كيف ندخل عليهم، وهم أخرجوك؟ فقال: "يا زيد! إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه." ثم انتهى إلى "حراء"، فأرسل رجلاً من خزاعة إلى مطعم بن عدى يقول له: يدخل محمد في جوارك. فقال (للرجل): نعم، ودعا بنيه فقال: تلبسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت، فإنني قد أجزتُ محمداً. فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام. فقام مطعم بن عدى على راحلته فنادى: يا معشر قريش! إنني أجزتُ محمداً،

(١) الطبقات الكبرى؛ المجلد الثالث؛ ص ٧٤ . (٢) نفسه؛ ص ٧٤، ٧٥ .

فلا يَهْجُهُ أحد منكم! فانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه ، وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدى وولده مطيفون به" (١).

فهذه صورة رائعة لرجل مشرك، شهيم، شجاع، لا يتردد فى إجارة النبي ﷺ، وهو يعلم ما تكنه له قريش من العداة الشديد. ويشرع الرجل الشجاع فوراً فى حراسة النبي، هو وأولاده، وقد تقلدوا أسلحتهم استعداداً للقتال وفاءً بعهدده لرسول الله ﷺ. فالمهم عند المؤرخ المسلم هو الصدق، والتدقيق فى تسجيل الحقائق، بقطع النظر عن المستفيد منها أو المتضرر.

تصوير العدو على حقيقته:

الزبير بن باطا (اليهودى) وموقفه الشجاع:

وهذا رجل من يهود بنى قريظة. كان قد صنع معروفاً لـ "ثابت بن قيس ابن شماس" أحد الأنصار. وبعد هزيمة قريظة حكم عليهم حليفهم القديم سعد بن معاذ - رضى الله عنه - بحكم التوراة على الخونة - وهو القتل. ولما جاء الدور على ابن باطا ليُقتل، ذُكر "ثابت بن قيس" بما قدمه له من معروف، لكى يشفع له عند رسول الله ﷺ. ووافق الرسول على إعفائه من القتل، فقال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة؟ فذهب "ثابت بن قيس" مرة أخرى إلى النبي ﷺ، فأعفى امرأته من السبى وأولاده من الأسر. فقال "ابن باطا": أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك؟ وذهب "ثابت" إلى النبي ﷺ ليبقى له ماله، فوافق. فسأل "ابن باطا" عن زعماء اليهود، فقالوا له: قُتلوا. فقال لـ "ثابت": أسالك يا ثابت - بيدى عندك - إلا ألحقتنى بالقوم! فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير. فما أنا بصابر لله! بعير دلو ناضح، حتى ألقى الأحبة! فقدمه ثابت فضربت عنقه" (٢).

هذا الخبر يصور ذلك الشيخ اليهودى فى صورة جديرة بالاحترام. فقد رفض أن يعيش وينجو من القتل على الرغم من رد النبي ﷺ امرأته وأولاده وماله عليه. وتقدم للقتل بثبات مدهش. وكان باستطاعة المؤرخ المسلم أن يترك هذا الخبر الذى يصور

(١) الطبقات الكبرى؛ المجلد الأول؛ ص ٢٩٦، ٢٩٧.

(٢) ابن كثير؛ البداية والنهاية؛ ج ٤ ص ١٢٦، ١٢٧.

أحد أعداء الإسلام الالءاء فى صورة شجاعة . وما كان أحد ليلومه . لكنها حقيقة رآها الناس بأعينهم . والمؤرخ المسلم باحث عن الحقيقة، فإذا وجدها سجلها دون تردد .  
ويسجل ابن هشام اسم الءء أعداء الإسلام: أبى جهل بن هشام بن المغيرة، ضمن قائمة الكرماء الكبار من الجاهليين الءذين كانوا ينحرون الإبل ليطعموا الحجيج قبل ظهور الإسلام<sup>(١)</sup> . فهى حقيقة، ويجب أن تحترم وإن كانت تعالى من قدر عدو لدود للإسلام ولرسوله .

وحين غدرت قريظة برسول الله ﷺ، ورفض عمرو بن سعدة، أحد كبرائها، أن يشترك فى الغدر، اعترف لسه المسلمون بسلامة موقفه، ولم يمسوه بسوء وقال رسول الله ﷺ فيه: "ذاك رجل نجأه الله بوفائه"<sup>(٢)</sup> .

### صورة سيئة للجيش مسلم:

وفى وصف وقعة النمارق ضد الفرس سنة ١٣هـ فى عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يقول ابن كثير: "وقد كانت دومة" امرأة أبى عبيد (أمير الجيش) رأت مناماً يدل على ما وقع سواء بسواء . فلما رأى المسلمون ذلك وهنأوا عند ذلك، ولم يكن بقى إلا الظفر بالفرس، وضعف أمرهم، وذهب ريحهم . وولوا مدبرين . وسأقت الفرس خلفهم فقتلوا بشراً كثيراً، وانكشف الناس، فكان أمراً بليغاً . وجاءوا إلى الجسر، فمر بعض الناس . ثم انكسر الجسر، فتحكّم فيمن وراءه الفرس فقتلوا من المسلمين . وغرق فى الفرات نحواً من أربعة آلاف، فإننا لله وإنا إليه راجعون"<sup>(٣)</sup> .

فهذه صورة سيئة للجيش المسلم الءذى ينكسر بتأثير رؤية رأتها امرأة ! لكنها الحقيقة، ولذلك سجلها المؤرخ المسلم دون محاولة للتزويق!

فإذا تحدث بعد هذا عن انتصارات رائعة للمسلمين وجب علينا أن نصدقه، لأن عدم التصديق عندئذ سيكون نوعاً من المراء السخيف!

### شهادة المؤرخ توينبى:

وقد شهد المؤرخ البريطاني الشهير "توينبى" للمؤرخ المصرى الحديث الشيخ عبدالرحمن الجبرتى بأنه واحد من أشهر مؤرخى العالم العشرة<sup>(٤)</sup> .

(٢) نفسه؛ ج٢ ص ٢٣٨ .

(١) سيرة ابن هشام؛ ج١ ص ٦٦٤ .

(٣) ابن كثير؛ البداية والنهاية؛ ج٧ ص ٢٧ .

(٤) الموسوعة العربية الميسرة: مادة التاريخ؛ ص ٤٨١؛ دار نهضة لبنان: سنة ١٤٠١ هـ .

- ١٩٨١ م .

## شهادة محمد شفيق غريال :

ويقول محمد شفيق غريال: " وكان حياد المؤرخين العرب، وقلة تحيزهم، سمتين عامتين تثيران العجب والإعجاب .

هذا الحياد الذي يشير الإعجاب يرجع إلى تعاليم الإسلام التي تدين التحيز والكذب والتحيف الممقوت، وتفرض العدل والقسط والحق والموضوعية. ويستطيع الباحث أن يرى هذه السمات العامة في أعمال المؤرخين المسلمين في جميع العصور، مع استثناءات قليلة جداً.

وابتكروا لضمان الصواب في تسجيل الأحداث تاريخها بالسنة والشهر، بل باليوم. ويصرح المؤرخ "باكل" أن هذا العمل لم يحدث في أوروبا قبل (١٩٥٧م) في حين لم يحتفظ المؤرخون الإغريق أو الرومان أو التوراة بالتواريخ احتفاظاً واضحاً. وقال "مرجليوث" في كتابه "دراسات عن المؤرخين العرب": إن صواب أشهر المؤرخين العرب يبلغ مرتبة سامية، ويجعل كتبهم ذات نفع عظيم للبشرية"<sup>(١)</sup>.

## شهادة المؤرخ عنان :

ويقول محمد عبدالله عنان: "ومما تجدر ملاحظته أن تاريخ الأندلس كتاريخ الحروب الصليبية، يمتاز في كثير من الأحيان بتباين واضح بين الرواية الإسلامية والرواية النصرانية، وقد تتأثر هذه الرواية أو تلك بالمؤثرات القومية أو الدينية، ولكن الرواية الإسلامية فيما يتعلق بتاريخ الأندلس، تبدو على العموم أقل تحاملاً، وأكثر دقة واعتدالاً. وأما الرواية النصرانية فكثيراً ما يشوبها الإغراق في التحامل، وينقصها الإنصاف والدقة." ثم ينقل عنان عن المستشرق الإسباني جاينجوس قوله: "إن ماريانا وأكابر المؤرخين الإspanيين تحذوهم عاطفة بُغض قومي عميق، أو نزعة تعصب ديني، قد أبدوا دائماً أبلغ الاحتقار لمؤلفات العرب... ويؤثرون أن يكتبوا تواريخهم من جانب واحد. وقد ترتب على هذا الروح الضيق الذي يطبع كتاباتهم أثر واضح. ذلك

(٤) الموسوعة العربية الميسرة: مادة التاريخ؛ ص ٤٨١؛ دار نهضة لبنان: سنة ١٤٠١ هـ

- ١٩٨١ م.

أن تاريخ إسبانيا في العصور الوسطى، ما يزال - بالرغم من كل ما أفاض عليه النقدة المحدثون - معتركا من الخرافة والمتناقضات" (١).

ويقول عنان إن تحامل بعض المؤرخين الإسبان لا يزال متحكما حتى وقتنا هذا، وهم يؤيدون فظائع ديوان التفتيش وإحراق الكتب العربية (٢).

لقد انحدرت الأمة المسلمة وابتعدت عن المثل الأعلى في رؤيتها الموضوعية للعلوم الاجتماعية، لكنها مع ذلك ظلت قريبة منه، وبقيت على تفوقها الأصيل في احتضان الحقائق، وصيانتها من عدوان العواطف وحيث التعصب الممقوت.

### شهادة الدكتور سهيل زكار :

ويقول الدكتور سهيل زكار إن "وليم" الذي كان أسقف صور والذي ألف كتاب الحروب الصليبية: "كتب بعقلية رجل الدين الكاثوليكي المتعصب، ونظر إلى الأمور من زاوية محددة، ولذلك يلاحظ أن مواده عن تاريخ الإسلام لا قيمة لها، عرضت بشكل ينم عن عداة سافر، وهي بالحقيقة ابنة عصرها، فهكذا كتب جميع اللاتين وسواهم من المسيحيين، ومع ذلك هي ليست ابنة بقعتها الجغرافية، فقد كتب "وليم" في "صور" وكتب ابن القلانسي والعماد الأصفهاني في دمشق وشتان ما بين نظرة التسامح والاعتدال لدى المسلمين، والإغراق بالتعصب لدى "وليم". وبناء عليه إن ما حكاه "وليم" عن أوضاع المسيحيين في بلاد الشام محض اختلاق" (٣).

ويقول د. زكار: "إن مواد "وليم الصوري" عن الأتراك السلاجقة ومعركة "مناز كرد" لا قيمة لها ألبتة، وهي أشبه بالأساطير، مع أن الرجل كان يتقن العربية، وكان تحت تصرفه مصادر عربية كثيرة" (٤).

وقال د. زكار: "أقدمت على حذف عدد من عبارات الشتم بحق النبي ﷺ

(١) محمد عبدالله عنان؛ دولة الإسلام في الأندلس؛ العصر الأول - القسم الأول؛ ص ١٠.

(٢) نفسه؛ ص ١١، ١٠.

(٣) مقدمة د. سهيل زكار؛ لكتاب "تاريخ الحروب الصليبية - الأعمال المنجزة فيما وراء البحار" تأليف "وليم رئيس أساقفة صور (١١٣٠-١١٨٥م) ج ١ ص ٦٦.

(٤) نفسه؛ ص ٦٦، ص ١٤٢ - الهامش، ص ١٤٣ - الهامش.

التي تبرهن على تعصب "وليم" الشديد" (١) ومن الأخطاء العديدة الفادحة في كتاب "وليم" قوله إن هارون الرشيد هو ملك الفرس (٢)!

ونحن نفخر بالتزام المؤرخين المسلمين بالرؤية الإسلامية لعلم التاريخ بوصفه سعيًا علميًا نبيلًا لمعرفة الحقائق وإبرازها واحترامها، بصرف النظر عما قد تسببه من خسف لأقدار أناس نحبهم أو تمجيد لأناس نعاديهم.

### تحامل المؤرخين الغربيين على الإسلام ورسوله:

وإن ما كتبه الأوروبيون والأمريكيون عن الإسلام ورسوله ﷺ ليس شهد على الانحطاط الرهيب الذي هوى بهم إليه التعصب. فمنذ الحروب الصليبية حتى منتصف القرن العشرين لم يستطع الغربيون إصدار كتاب يحترم الحقائق في تاريخ الإسلام. وبعد أن شعر بعضهم بالعار، بدأت الحقيقة تطل برأسها على استحياء في مؤلفات توماس أرنولد وزجر يد هونكه، وبريفولت، وفريثيوف شون، ومجموعة العلماء الذين اهدوا إلى الإسلام واعتنقوه ودافعوا عنه.

وبعد حادثة ١١/٩/٢٠٠١ الإرهابية، عاد التحامل والسباب في صورة فظة مبتذلة في مؤلفات تاريخية عديدة، ومقالات أكثر عدداً. ولا يزال الغرب مندفعاً إلى التحامل مبتعداً عن الموضوعية، باستثناء بعض الكتاب المنصفين. ومع تعاظم الهيمنة الأمريكية بلغت بهم الجرأة حد المطالبة بحذف الآيات القرآنية التي تحث على جهاد الأعداء والتي تتحدث عن غدر اليهود بالنبي والمسلمين (٣).

وفي مقابل التعصب والتحامل والسباب والتشويه المتعمد للإسلام على أيدي الأوروبيين، التزم المؤرخون المسلمون المنهج الإسلامي والرؤية الإسلامية فيما كتبه عن الاستعمار الغربي والصهيونية، فلم ينحدروا إلى مستنقع التزييف والتدليس، مع

---

(١) مقدمة د. سهيل زكار؛ لكتاب "تاريخ الحروب الصليبية - الأعمال المنجزة فيما وراء البحار" تأليف "وليم" رئيس أساقفة صور (١١٣٠-١١٨٥م) ص ١٤١ - الهامش.  
(٢) نفسه؛ ص ١٤٥.  
(٣) التفاصيل في كتابي: مرض كراهية الإسلام؛ نشر دار الجمهورية؛ سنة ٢٠٠٣ ج١ ص ٢٣-٥١؛ ج٢ ص ٥٧-٧٧.

وجود البواعث القوية التي تجذبهم، لأن ما صنعه المستعمرون الأوربيون بالمسلمين كان شنيعاً وبشعاً. ووراء موضوعية المؤرخ المسلم رؤية إسلامية تلتزم الحقائق ومنهج علمي يفرض الموضوعية والعدل مهما طغى العدو وتجبر، والله تعالى يقول للمسلمين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨].

ويقدم كراتشكوفسكى - أحد كبار المستشرقين الروس - المؤرخين العرب الذين كانوا في كثير من الأحيان جغرافيين أيضاً، ويشهد لهم بالتفوق، ويقتبس نصاً من مؤرخ الحروب الصليبية "بروتز Prutz" الذي قال: "ليس في وسع الأدب الأوربي لذلك العهد أن يقدم مثلاً يفضّل مؤلفاتهم، ويكفي في هذا الشأن تصفح ما خلفه المؤرخون العرب ومقارنة ذلك بأحسن ما أنتجه فن التاريخ في أوروبا، ليبداً لأوّل وهلة، ودون تردد، أين يكمن الفهم والإحساس التاريخي والوعي السياسي والذوق في الشكل، والفن في العرض" (١).

\* \* \*

---

(١) كراتشكوفسكى؛ تاريخ الادب الجغرافي العربي؛ ص ٢١ .

## خاتمة

وبعد، فقد بيّنت هذه الدراسة المختصرة أصالة علم التاريخ في ثقافتنا الإسلامية وكشفت عن جذوره الضاربة في أعماق القرآن الكريم. فكثير من الآيات تنطوي على معارف تاريخية بالأمم السابقة على الإسلام، ابتداءً من آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، إلى أمة محمد ﷺ. ولهذا كانت الفصول الأولى في أى كتاب للمؤلفين الرواد عن خلق آدم وزوجه، وبعدها يأتى تاريخ الرسل ثم السيرة النبوية المطهرة، ثم تاريخ الأمة المسلمة.

وقد أسهم كل مؤرخ بنصيبه الوافر بأن كتب تاريخ الأمة على امتداد الأيام التى عاشها. فورثت الأمة المسلمة ثروة تاريخية هائلة عن ماضى أيامها.

ويدهشنا المؤرخون المسلمون بحرصهم الشديد على تسجيل الحقيقة المجردة، وعلى الموضوعية الصارمة فى تحرير الأخبار. وفى تسجيل الحقائق بصرف النظر عن من يستفيد منها أو يضار. وحين عقدنا مقارنة بينهم وبين المؤرخين النصارى هالناً الفرق الشاسع بين تحامل المؤرخين المسيحيين وموضوعية المؤرخين المسلمين، والحقيقة المجردة هى وسط العقد فى إكليل الغار فوق رؤوسهم.

\* \* \*